نوافذ
عربية





رواية



الوسمية

رواية

عبد العزيز مشري



الوسمية

الوسمية / رواية

تأليف عبد العزيز مشري

الطبعة الأولى في دار أثر 1439 / 2018

ردمك **978-1-947836-16-7**



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: **00966505774560**

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

جاءت الرياح الموسمية..

فاستيقظت الفرحة، وجهّز أحباب الأرض وسائلهم للوسمية..

فيها: موسم المطر،

وفيها: موسم الزرع،

وفيها نتاج ما يفلحون، وما يعرقون.

(1)
انتظار

لم يكن الملل قد بدا على وجه العم سعيد واضحًا، بأي شكل من الأشكال.

سوّى من قعدته. رد أطراف جبته البيضاء حول ركبتيه، وراحت أصابعه تلاعب كتلة جبته الصوفية.

كانت عيناه تتحركان.. هنا، وهنا، وهناك.. كانتا زرقاوين رماديتين، يحفّهما بياض أغبر، لا صفاء فيه. تطوفان، ولا تبصران.

قال:

- الله يكفينا شر هذا الزمان.. إلى متى ننتظر؟!

وسكت!

كان القاعدون معه يغوصون في معانٍ كثيرة للانتظار. راحت تصوراتهم في البعيد، تعدّت معنى الانتظار، واستوت جميعها عند سقوط المطر، مطر «الوسمية» المحتجب في هذا الزمان.

حميدة، بعدما ورثت أباها، ويتمت على بنتيها، وأمها العجوز، بعدما مات زوجها.. بعدما أصبحت تعول البيت..

بعدما نظفت أراضيها الزراعية القليلة من الحصى، وأقفلت الطريق

-حتى يجيء الزرع ويحصد - وتفتحها.

تنتظر، مع المنتظرين، ولكن بعيدًا عن مجلس الرجال:

(والله.. ما هي ضعيفة، ولا قليلة عقل أو حجة.. ولا من واحد يقدر يقرب من حقها. لكن للحرمة حدودًا!)

***

أخرج أبو جمعان علبة الصفيح.. بحجم الكف.. مملوءة بالتمباك الأخضر.

ضغط بإبهام يمينه في وسطها من قدام. قالت العلبة الفضية: طق.

في غطاء العلبة، من الداخل، دفتر صغير، خفيف مثل عش العنكب، أبيض كما البفت.

يمسكه مشبك، من وسطه، ولا يتركه يختلط بالتمباك في بطن العلبة:

- ورق الشام.. ورق ممتاز..

انتزع أبو جمعان ورقة واحدة، فركها بين أصابعه كما تفرك الدراهم، حطها على جنب.. مد الإبهام والوسطى، وغرز السبابة من يده اليمين، وسحب بقبضة الأصابع من التمباك الأخضر.. حطه في راحة اليسار، وهرس بأطراف أصابع اليمين.. لملمه.. أخرج منه العيدان الكبيرة.

حشى الورقة البيضاء بسبابته، فامتلأ بطنها مثل بطن الحبلى.

- تمباك أخضر.. ريحته تجيب بالعافية..

لفها.. مرة.. مرتين أقامت عودها، على حافة الورقة الممدودة مرر طرف لسانه مرات، وظهر اللعاب واضحًا في طرف الورقة. مسح عليها بأصابعه.

مال برأسه راضيًا عنها، وجمع رأسها المفتوح مثل زهرة اللوز، رفعها على مهله، حطها بين الشفتين.

أخذ علبة الكبريت «أبو شعلة الأصلي».. نزع عودًا واحدًا، حك به في جانب العلبة فقال: تشخط.

ولعها.. خرجت ريحتها، تدخل الدماغ.

حديث الجماعة يدور، النظرات تدور، وفناجين الشاهي تدور.

كان أبو جمعان يختزن كل الكلام الذي دار، وقال:

- فرج الله قريب.. يا سعيد.

ملأ جوفه من فنجان الشاهي:

- فنجان شاهي ما يحب غيره، «عقال فيصل» في أسفله نجوم مزخرفة، بين فجواتها سواد. أما فنجان «ساق سلوى» فللأولاد والنسوان.. كله بخط ذهب من عند «خيط النبي».. لكن هذا شيء.. وهذا شيء.

مد أحمد بن صالح يده تجاه أبو جمعان.. كانت ترتعش، ترتعش حتى وهي ساكن، وقال:

- يا رجال.. هات ورقة من التمباك اللي قدامك.. وخلوها على الله، فلو حسب الزراع ما زرع!

وفهم أبو جمعان:

- سيجارة محشوة بالتمباك، جاهزة مجهزة للتدخين، ملفوفة وخالصة.

ضحك القاعدون، كلهم اشتركوا في قهقهة خفيفة.

سمع صوت قوى من الخارج.. في الصوت نحنحة:

- يا أهل البيت.. يا بو صالح.

تململ أبو صالح في جبته الصوفية الحمراء الطويلة.. جاء رده مفزعًا للهدوء المختلط بالقهقهة:

- أهل الله.. تفضل.

وأضاف:

- البيت بيتك.

قبل أن يدخل مسفر القصير، ضرب على الباب الخشبي نصف المفتوح ضربات وراء بعضها، خلع نعليه الجلديين، دخل بجسمه وصوته:

- السلام عليكم.

رد الجميع:

- وعليكم السلام.

تواسعوا، عرض كل واحد من القاعدين أن يقعد بجانبه.

قعد إلى جانب أبو جمعان.. متربعًا معهم، على فراش الخوص العريض، بعد سكوت قصير قال:

- كيف حالكم يا جماعة؟

قال أبو صالح:

- كلنا مثلك.. ما فيه غريب.. ننتظر الوسمية، وفرج الله قريب.

سأل مسفر القصير:

- طيب.. ايش تتوهمون بعد صلاة الاستسقاء؟

شابك العم سعيد الأعمى بين أصابع يديه، وقال:

- يعنى.. تحسبون الأمر اللي جاء من عند الملك بصلاة الاستسقاء.. خلاص؟.. المطر يطيح؟!

قذف أبو جمعان بعقب السيجارة من الشباك إلى الحوش. مصمص شفتيه، وقال:

- لو أراد الله بالمطر.. ما يأخذ رأى ملك، ولا غير ملك!

قام العم سعيد الأعمى. توكأ على عكازه الطويل.. تساءل إن كان الوقت عصرًا كما يحسب!

رد مسفر القصير:

- سمعت قبل ما أجي راديو الرياض يؤذن.

قال العم سعيد الأعمى:

- يعنى؟! قبل نص ساعة؟!

قال مسفر:

- منها.. وحواليها.. بيننا وبين آذان الرياض نص ساعة.

جاء ولد بإبريق فيه ماء.. صاح بخجل:

- الماء.. يا عم سعيد.

أخذ بيد العم سعيد الأعمى.. تركه في الساحة يبول ويتوضأ.. بعدها يجئ.. يأخذ بيده إلى عند المسجد.

استوى الجميع، من توضأ، ومن كان متوضئًا.

قال أبو صالح:

- يا جماعة الخير.. أذنت، وما جاء الفقيه!

قال مسفر:

- توكل على الله.. تأمم بنا.

صلى بالمصلين.. سلم على ملائكة اليمين واليسار. قال وهو يمسح على لحيته القصيرة:

- قولوا معي.. بحق طهر هذى الصلاة:

اللهم أغثنا.. غيثًا كريمًا.. إنك الكريم الرحيم.

قالوا كلهم: آمين.

قاموا. لم يصلِّ أحدهم ركعتي سنة بعد العصر.

فرد أبو جمعان عمامته في الهواء.. رفعها بقوة وهوى بها.. قالت العمامة: صك.

برمها برمتين، لفها على مهله فوق رأسه:

(نظيفة.. طاهرة.. تصلح سجادة.. تصلح لفرك العين.. لا تلمسها اليد، وفيها ريحة تمباك).

(2)

تمطر وسمية

جرى خير.

توزع بالقيل والقال.. من بيت، إلى وادٍ، إلى جبل:

(بنت حميدة جاء لخطبتها شاب من قرية «الجبل»).

امتلأ سمع البنت بالخبر الجميل، والثقيل.

أخرجت أحسن ثوب عندها.. مخيط بالتطريز.

في الصبح تمشط شعرها.. في المساء تمشط شعرها.

قالت حميدة:

- يا بنتي.. لازم تقعدي في البيت، مع جدتك، ومع أختك الصغيرة.. أنا، الله يعينني.. أشوف شغلي في الوادي والزراعة!

قالت في إحدى قعداتها، قدام الحريم:

- بنتي بعد.. صغيرة، وأحتاج لمعونتها.. لكن الخطاب كثروا.

قالت واحدة:

- الناس.. يطمعون في حق اليتيم!

قالت واحدة، لها دراية بالخطاب:

- البنت جميلة.. تستاهل.. ماهرة.

وواحدة قالت:

- نصيبها جاء.. إلى تحت قدميها.

لم تعد بنت حميدة تقدر على الخروج كثيرًا.. لكن أمها لم تمنعها من «الاستقاء»:

(لا يشارك في الاستقاء إلا البنات المدركات.. قوة وتصرفًا).

الدلو، لما يكون مملوءًا بالماء، يحتاج إلى عضل يشده، وإلى عضل يرفعه، ويصب ما فيه من ماء في القربة المصنوعة من جلد الماعز النظيف، المطلي بالقطران الأسود. قرب كبيرة.. وقرب صغيرة.. على قدر من يشيلها من النسوان والبنات. تسرح القربة فاضية.. تروح مليانة بالماء.

قالت حميدة، وهي تمسح بطرف «شرشفها» على وجهها المدهون:

- شباب هذا الزمان مدلع. ما فيه تعب وراء الدراهم.. واحد يسافر إلى مكة.. وواحد متعلم يشتغل في وظيفة.. يلبسون ثياب بفت بيضاء، وعمايم نظيفة.. ويشربون الدخان من «أبو بس».

وأضافت:

- الله ما يعطى خير من الأرض، وخير من ورق الدراهم!

ومر بقناعة حميدة بأن بنتها ستروح إلى بيت خير.. تحت بطن شاب يشتغل بالوظيفة.. بنتها الصغيرة ستكون لها حياة طيبة.. يجئ وقت كل شيء يشتغل بالكهربا، ليستريح البنى آدم.

***

مضت أيام طويلة وقاسية ومحاطة بالجفاف، تحولت فيها كل آمال الناس إلى رجاء حار يستعطف رحمة السماء. أخذت النساء يتصدقن بملابسهن القديمة. أخرج الرجال حب الذرة المكنوز في بيوت مئونتهم، فجعلت منه زوجاتهم طبيخًا لذيذًا بالملح والبهار، وقدمنه في الغذاء والعشاء.

***

قالوا، بعد صلاة الجمعة، إن سبب الجفاف.. قلوب الناس ممتلئة بالحقد وبالضغينة ولا يظهرونها. رأوا أن يقرأوا «الراتب» خلاصًا وتطهيرًا للقلوب.. اعترض البعض بأن «الراتب» لا يُقرأ إلا عندما يكون في القرية خائنًا أو مخربًا لم يعترف بذنبه، حينها تجب قراءة الراتب (الفاتحة وبعض الدعاء بأن ينتقم الله منه أمام الجماعة في يوم أسود لم يكن يحسب له حسابًا).

قال الفقيه:

- يا جماعة الخير.. نقرأ الراتب والأعمال بالنيات!

هبط سكون احتلّ ساحة المسجد. نظروا وهم جالسون إلى الأرض وتمتمت ألسنتهم بالفاتحة.. ثم قالوا جميعا: اللهم آمين. وتفرقوا إلى شئونهم.

مر أسبوع بثقله ومرارته. جاءت الجمعة وفي السماء بعض غمام. وهبت رياح جافة وخشنة في أحيان كثيرة.

قالت الناس:

- ربنا كريم.

وصلى بالجميع الفقيه، من نفس كتاب الخطب.. ينتقل بين أبوابها: (يعز الله الإسلام والمسلمين، ويحمى حوزة الدين، ويدمر اليهود وأعوانهم من

المستعمرين، ويجعل الله ولايته فيمن خافه واتقاه، وينصر الحاكم ومن والاه).

عقبها خرجوا من المسجد، والأولاد يزاحمون الكبار بحرج وبغير حرج. لا يفقدون أو يتغالطون في أحذيتهم المتناثرة مثل السحالي أمام باب المسجد.. اقتعدوا الساحة على هيئة دائرة.

لمحوا شابًا غريبًا عنهم.. وظهر شيخ في ثياب بذل في تنظيفها جهد كبير. خرج من المسجد متأخرًا قليلاً.. قال بصوت خشن فيه جهورية حادة:

- لا.. إله.. إلا الله.

ثم قال وهو يلمح الدائرة:

- النظر سلام يا جماعة.

جاء الرد جماعيًا متساويًا:

- وعليكم السلام.

قال:

- يا جماعة الخير: العلم خير. احنا إن شاء الله عندنا عروس يوم الخميس القادم. وما نستغنى عن وجوهكم الطيبة تحضرون.. البنت بنتكم، والولد ولدنا، والبيت بيتكم.. والله يحييكم.

فكروا:

(الشيخ الذى عزمهم، من القرية المجاورة.. هو أب الشاب الموظف الذي تقدم لخطبة بنت حميدة).

كلمة سيرد بها الشيخ على الدعوة الطيبة، الكل ينتظر إعلانها.. استقرت

كل العيون فوق رأس الشيخ.

على مهله مسح على جبينه بكفه اليمين، ورفع عمامته من فوق جبينه إلى فوق عقاله.. وقال:

- الله يحييك. البنت بنتكم والولد ولدنا.. والله يعينك باليسر.

قالوا:

- أبشر بنا كلنا صغير وكبير.

***

انتشرت غمامة مثل الكحل.. تبعثر شيء من الرذاذ الخفيف، وتصايحت الناس بحب وحذر:

(أبشروا.. أبشروا).

قال العم سعيد الأعمى لزوجته:

- أسمع صوتًا في الخارج.

ردت بطمأنينة:

- الناس يلملمون دجاجهم ودجائنهم.. السماء غائمة هنا وهناك «رشاش».

سألها إن كانت قد غطت فتحة السقف.. فلن تعطى شيئًا من نور النهار.. الغمام يمنع النور.. وقالت بشيء من التذمر إن كلامه كثير، ووصاياه كثيرة لا تنتهى.. وهذا شأن العميان.

حاولت إقناعه.. فتحة السقف يجب أن تكون نصف مفتوحة من أجل دخان النار.. لكنه رد عليها بغضب.. المطر يقتحم الفتحة إلى داخل البيت..

وأكد أن المطر عندما يطول امتناعه عن الهطول.. ينزل شديدًا قويًا، وربما نزل «برد».. قطع ثلج مثل ثمرة اللوز.

جاء الصوت من الخارج:

- يا أهل البيت.. يا سعيد؟!

على طول.. رد سعيد:

- أهل الله.. تفضل.

وأضاف بود وابتهاج:

- ادخل بحذيانك.

قال أبو جمعان وقلبه يهتز من الفرحة:

- أبشر يا سعيد.. السماء أفرجت عن خيرها.

وقال:

- تعرف يا سعيد.. الفقيه كان صادقًا يوم قال اقرأوا الراتب.

استحسن سعيد قوله:

- أي والله.. صادق.

خرجت زوجة العم سعيد من الداخل.. كانت تلبس جبة حمراء بفتحة.. قدام الصدر.. تحيط بكل جسمها من فوق السرة ومن وراء الجانبين.. بنصف كم.. بكتلتين طويلتين من الصوف المصبوغ بالأحمر.

قالت:

- كيف حالك يا أبو جمعان؟

وأضافت:

- موت من ماء.. ولا موت من ظمأ.

قال أبو جمعان ووجهه كله يلمح فيها:

- كيف حال عيالكم من البرد؟

ردت:

- برد هذه السنة كان صعبًا.

كل سنة يقولون إن بردها صعب.. الأولاد يتناوبون في السعال.. لكنها تحرص على أن تجبرهم على شرب الجنزبيل مع الشاهي الذي يحبونه. تطحن الجنزبيل في «المهراس» وتمزجه بالشاهي، ويغلي على النار.

قال أبو جمعان لما استحسن الفكرة:

- أيوه صحيح. ولو تركتيه على النار أكثر، بيطلع أحسن.

كان العم سعيد الأعمى يتوقف عند كل وقفة في الكلام يتوقفها أبو جمعان:

- آها.. آها.. آه.

عند كلام زوجته ينصرف.. يريدها أن تنتهي من الكلام، ليأمرها بفعل شيء.

قال:

- اسمعي يا سعدية.

.. أكمل بعد قليل:

- ودنا بدله قهوة من اللي يبغيها قلبي.

استدارت لتحضر عدتها.. وهي ماضية لمحت فتحة السقف. تأكدت من أنها أغلقتها بصحن النحاس.. يستحيل على المطر أن يخترقه أو يتسرب منه.

قال العم سعيد في دعوته لأبي جمعان:

- اقترب هنا من صهد القبس.

رد أبو جمعان أنه قريب منها، وأكد قوله بوضع كفيه الدافئتين جدًا على يد العم سعيد الأعمى. قال:

- الدفا نص المعيشة.

وقال:

- وصاحب المثل يقول أدفينا وعافينا.

استطاب العم سعيد قوله. علق:

- يقول القدامى إذا جاء الدفأ جاءت العافية.

غمس أبو جمعان يده اليمنى في جيبه حتى غابت، بعد حركة تفتيش قصيرة، أخرجها ممسكة بعلبة التمباك الفضية، وضعها على ركبته اليسرى، لم يفتحها بعد.

جاءت زوجة سعيد الأعمى بدلة القهوة.

خلطت كل تراكيبها. ملأتها بالماء. وضعتها بهدوء على الكانون. النار تشتعل وتنفث دخانًا أزرق يلهب العيون بحرارته. حيث استقرت الدلة.. نضح منها قدر ضئيل على الجمر، فقالت: طش.

تفرعت رائحتها مع البخار الذي اختلط بدخان النار.

قبل أن يدخل أبو جمعان في مشروع توضيب السيجارة، رفع العلبة

الفضية من على ركبته.. وفجأة دوى صوت قوي.. قوي.. اقتحم دويه الآذان.. قرع في القلوب.

في ركن البيت يلعب الأولاد لعبة «القطرة»، ست نقاط مخططة على كف من خشب.. خطوط ثلاثة.. وثلاثة.

جاء صوت الرعد عظيمًا رهيبًا، ونذيرًا بالخير والفرج.

قال كثير من الناس: (يا كريم).

(ماء كانت تنتظره الأرض، وينتظره الناس، وينتظره الرجاء الطويل، والدعاء المعلق بالأمل، وصلاة الاستسقاء، والمرسوم الملكي، والبهائم التي جاعت إلى الكلأ).

وضع أبو جمعان علبة التمباك مرة ثانية.. قال: يا كريم.

قال العم سعيد الأعمى: يا كريم.

قالت زوجته: يا كريم.

قال الأولاد لبعضهم: استغفر الله.. استغفر الله..

خافوا من الصواعق.

بقطعة قماش بالية محشوة بالخرق البالية.. قبضت زوجة العم سعيد الأعمى على عروة الدلة من خلفها.. وضعتها على طرف الجمر.. أحطتها بركام من الرماد الحامي.. كانت الدلة تتقايض من تحت قبتها النحاسية.. تشبه قبة المسجد الكبير.

تناولت فنجانًا من الفناجين الصيني البيضاء المنقوشة.. ملأته إلى نصفه بالقهوة. عامت على السطح قشور حب «الهيل» وبعض شعيرات الجنزبيل.

(الدلة في اليد اليسرى، واليمنى تمسك بالفنجان).

ناولت أبو جمعان. تناوله حتى استقر بين أصابع يده اليمنى، بتركيز، قدمه للعم سعيد الأعمى وقال:

- خذ يا سعيد.. عندك القهوة.

كان العم سعيد يدرك أن فنجانًا واحدًا قد صبت القهوة فيه. قال:

- عندك.. يا بو جمعان.

بعد إصرار من أبو جمعان تناول العم سعيد الأعمى الفنجان، أخذه قليلاً.. قليلاً، لامس شفته السفلى.. رشف منه رشفة.. سمع صوت فنجان آخر تصب القهوة فيه.. وفنجان ثالث.

قال بهدوء:

- القهوة ما تصنعها إلا يد تعرف.

قالت زوجته:

- اشرب.. عافية.

قال أبو جمعان:

- قهوة تستاهل الكيف.

قدم أبو جمعان فنجانه فارغًا لزوجة العم سعيد الأعمى.. لم يضع أصابع يده اليمنى على رأس الفنجان.. حتى تنتهي الدلة.

تناولته. انهمكت في ملئه. كانت علبة «الكيف» قد قالت: طق، بضغطة خفيفة من إبهام أبو جمعان.. استل ورقة واحدة من دفتر «ورق الشام»، وبدأ في توضيب سيجارة.

(3)

بنت حميدة تتزوج

قطرت أشجار الطلح، والعرعر، واللوز، والحماط، بالماء.

تنازى القطر على جذوعها، وتحتها.

كانت جرداء.. وكانت طرية.

طلعت الشمس صافية.. دافئة.

أوقدت القبس وسط الساحة. عند آخر بيت، في الطرف، جاء الأولاد، تحلقوا حول ضارب الطبل الذي قعد يحمى أديم الطبول. ضرب برأس عصاة النقع.. قال الطبل: طن، وضرب: طنطنطن.. طن.. طن.

واحدًا.. واحدًا.. نزل أفراد الجماعة. من هذي القرية وهذي القرية. كلهم ملابسهم نظيفة.. وعمائمهم نظيفة.

قال أبو جمعان للأولاد:

- يا عيال.. رصوا.. رصوا.. وإلا وسعوا عن الزجال.

قال ولد:

- تحسبنا يعني ما نعرف نعرض؟

قال واحد:

- كما الرجال.. رصوا.. اثنين اثنين.

جاء الشيخ.. جاء الفقيه.. وقفا عند أول الدائرة.. يلبسان «مشالح».. على رأسيهما عقل سوداء.

اكتملت الدائرة.. حمى قرع الطبل، ونظم الضرب.. رفع «العراضون» القدم اليمين.. القدم اليسار.. القدم اليمين.. القدم اليسار.

(كان منهم الذي يحمل بندقية أو سيفًا أو خنجرًا أو مشعابًا).

توسط دائرة العرضة شاعران من الجانبين. امتدح الأول كرم وحسن الضيافة في الجانب الثاني. رفع الراقصون في العرضة أصواتهم.. ترديد طويل خلف الشاعر، من هذا الجانب، ومن هذا الجانب:

(يا لال.. لا للاله.. يا ل لا ل له).

دورتان اثنتان ورائهما اثنتان.. رفعت الأقدام اليمنى.. فاليسرى.. فاليمنى.. في مكان واحد.. ووقفوا ينصتون لقول الشاعر:

(يا لال.. لا للاله.. يا ل لا ل له ونحن اللي نقدر نهزم روسية).

قبل أن يدوروا على الكلام.. نزل شاعر الجانب الثاني، توسط الدائرة.. رد على الكلام:

(ما ضربنا بلقص القذ حتى نحارب روسية).

فهم العراضون:

(ما تعودنا على قرص البرغوث!).

فهموه. بألغازه البعيدة.

لم يرم واحد منهم يحشي بندقية واحدة. قرار الحكومة.. والأحزمة مشدودة على الوسط.. منضودة بالرصاص.

جاء أب العريس.. في يده دراهم، قسمها بالتساوي، بين الشاعرين.. انتهى كل شيء قبل آذان المغرب.

كانت النساء على سطوح البيوت «يخيلن العراضة».

نزلن من الدرج والسلالم القصيرة، حاملات أطفالهن. اجتمعن على العشاء في بيت العريس.

(لا يجوز، أبدًا، للرجال والشباب دخول مجلس النساء.. عادة كانت قديمة. قال المتعلمون إنها حرام وعيب، ومعها عادات كثيرة يحرمها الدين!).

بعد قليل تقدم أربعة رجال. كل رجل يحمل صحنًا كبيرًا يتناثر باللحم والأرز.

دخلوا من باب مجلس الحريم الكبير. هجدت الأحاديث، وبكاء الصغار، وكلام العجائز والبنات.

كان فراغ المجلس يفيض برائحة البخور والأنفاس. امتلأ وفاض.. كما لو أنه فرن فيه نار ملتهبة.

لما تقدم الرجال لم يلتفت واحد منهم إلى واحدة.

امتدت أيدي عدد من البنات.. كن بالقرب من مقعد العروس.. (المقعد تجلس عليه العروس، أما العريس فلا مقعد ولا مكان له بين جمع النساء).

قلن لها: (هيا قومي.. العشاء نخاف يبرد).

وجب على العروس أن تبدأ.. قالت حميدة، بصوت جهوري، لكل الحاضرات:

- تفضلوا.. الله يحييكم.

***

قال الناس إن أهل العريس تجملوا، وكانوا كفؤًا للنسب:

(أول ليلة ذبح ثور سمين، طبخوه جيدًا.. يأكل منه اللي ما عنده سنون. وصبح اليوم الثاني ذبح أربعة خرفان.. وطاسات سمن بقر.. وكيسين من الطحين.. وأقراص. ذبح ثاني ليلة اثنا عشر خروفًا.. كلها سمينة، غطت كل الحاضرين.. رجال ونسوان. طوال الوقت: قهوة وشاهي.. قهوة وشاهي).

بعد ليلتين من الصخب والضجيج، ورائحة الدسم تملأ الركن الكبير من حوش البيت، تغطي الحوش والدار والدور الملاصقة.. جلس أب العريس يعد الدراهم.. تقدم بها المهنئون صبيحة اليوم الثاني.. وجدها ألف ومائتي ريال.. لفها في صرة من القماش المزهر.. ناولها لزوجته وأوصاها بحفظها في صندوقها إلى جانب صكوك وثائق أراضيه الزراعية الصغيرة.

(4)

مصلح الدوافير

خلف ثيرانهم.. الناس يعملون.. يحين وقت القيلولة والغذاء. يربطون ثيرانهم وحميرهم في جذوع الشجر.. ويتغدون تحت فيئها، ويشربون القهوة الممزوجة بحب الهيل والجنزبيل، ويشربون الشاهي.

يجلس أبو جمعان، متكئًا على مرفقه، تحت الطلحة..وقتًا للف التمباك، والاستمتاع بكيفه.

***

مرت أيام سبعة وثمانية. بذروا الشعير والقمح والعدس في أديم الأرض، غطوا عليها بالتراب الندي. قعدوا زمانًا يعدون فيه الأسابيع، حسب التنجيم وإحصائيات النجم البارد ونجم الثريا، وكم بقي على سقوط مطر ما قبل الحصاد.. مع دعوات لا تحصى في أن يرعى الله ويبارك.

قال العم سعيد الأعمى لابنه الكبير حمدان:

- بذرت كل البلاد؟

أجابه ابنه، وهو يغسل قدميه من الطين:

- نعم.

***

قال العم سعيد الأعمى في جلسة العصر:

- يا جماعة الخير.. جاء زمان، شفنا فيه الدهر وجفافه، وبعد ما صلينا الجمعة.. خرج علينا واحد من المطوعين اللي يرشدون الناس للدين الصحيح، ويعلمونهم الأصول.. قال: قعد يختبرنا.. فقال لواحد من الجماعة، هل تعرف ربك؟!

قال: نعم! قال: كيف عرفت ربك؟!.. قال بصدق نية: أعرف ربي بالفقر. وسكتنا.

قال المرشد: وما هو الدليل؟!

وبعد ما مسك الرجل بطرف جبته، قال: الدليل هذى الجبة المقطعة قدامك.

قال العم سعيد مستكملاً، بعد وقت قصير:

- والله ما أحكى لكم غير الصواب.. المرشد خجل وسكت، وما يدري ايش يقول له، والناس سكتوا، بعدها قال المرشد:

- قولوا جميعًا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله..

تشهدنا كلنا.. ودعيناه على الغذاء.. والغذاء كان عيش وسمن.. غذاء ما نحلم به في النوم.

أضاف:

- دائمًا ياجى الدهر، ويروح، وربنا لطيف بعباده.

قال واحد:

- يقولون في السيرة.. إن فيه واحد سأل الرسول عليه السلام.. قال: يا رسول الله.. ايش أحسن الأكل؟.. قال الرسول عليه السلام: الجوع أبصر.

وأضاف:

- الجوع ما يفرق بين طيب الأكل وبطاله.

قالوا جميعهم: صدق رسول الله.

امتد حبل الحديث.. قال واحد:

- يقولون.. الرسول عليه السلام حزم بطنه من الجوع، وما مات.

رد واحد:

- ويقولون.. الصحابة ما كانوا يشبعون.. سبحان الله!

- (توافقوا جميعاً على أن الجوع كافر، الدهر يجيء ويغيب وفيه العذاب بالفقر، ومن بعد كل عسر يجيء اليسر)

في حضرة الجلسة.. تجاذبوا الكلام حول أيام الشدة والفقر، وقدرة الرسول على مواجهة الجوع، والتصرف بعين الحكمة وقتما يحين الحين. في هذه الأثناء أتى أحد الأولاد بصحن دائري فوقه فناجين الشاهي.. يتوسطها الإبريق الأحمر، مرسوم على جوانبه أوراق ورد متفرعة الورق.

صاح رجل خارج الساحة:

- «مصلح دوافير الجاز»

حدثت مطاردة خفيفة.. تفرق الأولاد حيث يلعبون في الساحة.. جاؤوا مفزوعين:

- «واحد مقاول.. واحد مقاول»

- «مقاول»

- يلبس البنطلون والقميص وغريب.

- خافه الأولاد.. ملابسه ما هي بمألوفة.

- كان يحمل صندوقاً مثل حقيبة متوسطة.. يعلقها إلى جنبه الأيسر.

جلس لإصلاح «الدافور». التم حوله الأولاد الهاربون.. كانوا يستمتعون بطريقته في هندسة الأدراج والأرفف. مسكونة كلها بالمفكات والإبر والجلد، وكل ما يحتاجه الدافور من غيار وإصلاح.

مد «أبو صالح» نظره قليلاً إلى أن احتوى المقاول. زعق به:

- «تعال.. تفضل يا حجي».

قال «حجي» ليخفف عليه من الغربة، «مقاول» شديدة.

جاء مصلح الدوافير، قال:

- «سلام عليكم ورحمة الله»

ردوا جميعاً:

«وعليكم السلام ورحمة الله».

جلس، كانت جلسته صعبة ومتعبة، على بساط الأرض وأجهد حتى استوى متربعاً.

ناوله «أبو صالح» فنجان الشاهي يطفح.. قال:

- « تفضل يا حجي»

قال المقاول:

«شكراً.. شكرا»

في هدوء رد أبو صالح:

«العفو يا حجي.. عفواً.. اسم الكريم؟»

أجاب المقاول:

«اسمي شعبان.. عبدالكريم»

قالوا جميعهم:

«أهلاً وسهلاً»

وسأل أبو صالح:

«من اللد.. والا من الرملة؟!»

(كان أبو صالح يعنى سؤاله. ما هو تثقف. لكنه يعرف هذه الملامح.. عاش معهم في بلادهم أربع سنوات. يحكى عن حرب 48. سافر هو وولده صالح.. ومعهما ناس حفاة.. على أقدامهم. ومرة سافروا راكبين. كانوا يبغون يقدسون).

أجاب:

- لا والله.. من غزة.

رد أبو صالح بابتهاج:

- أهلين وسهلين بأهل غزة.. مرحبتين.

تهلل وجه شعبان. سأله كيف عرف أسماء هذه الأماكن.

أجابه أبو صالح أنه يعرفها. وحكى له بعض جزء من القصة.

استدعى أبو صالح أحد الأولاد ليحضر الدافور الخربان. أصلحه من الجوانب التي يشتكي منها، وعالج مكان التسريب بقليل من اللحام القصدير مع ماء النار. الجماعة جالسون يتابعون باهتمام.

الأولاد تحلقوا معجبين بالنار الخضراء.

طلب المقاول ريالاً. دفع أبو صالح المبلغ، وأعطاه خصلتين من العنب الأبيض. يعرفه الجميع من كرمته الكبيرة في الوادي.

كان الأولاد قد دخلوا في صراع حول الحصول على فتافيت اللحام البيضاء الفضية. نهرهم أحد الجالسين:

- عيب يا اخوان!

قال أحمد:

- أنا الذى جبت الدافور.. ومن حقي أخذها.

وقال ولد الجيران:

- يا سلام.. وأنا جبت الشاهي.. وجبت العنب للمقاول.. من عندكم.

نهر الرجل مرة أخرى:

- فكونا من المشكلة.. قلت لكم عيب!

نهرهم بعين حمراء، وعرفوا أنه بعدها يضربهم بالكف.. انتهى الصراع على توعدات كثيرة بينهم بالضرب والتعدي.

قال مسفر القصير، ورائحة بقايا التصليح لا تزال راكدة:

- طيب يا بو صالح.. أهل فلسطين هاذولا.. ايش قصتهم؟

قبض أبو صالح على لحيته بكفه اليمنى، وفي بنصره كان يتحلق خاتمه الفضي المتناسب «الختم». تطلع نحو مسفر القصير بعينين سارحتين.. كانت إحدى عينيه من الباغ. وضعها «الحكيم» بعد عملية فيها، من أعوام راحت، بعد حادثة وقعت في الوادي.. بيده وهو ينظف كرمته.

قال:

- الله يهديك يا مسفر.. تبغى تذكرني أيام كانت الحصى خبز! الله.. الله.. الدنيا تتغير.. سبحان مغير الأحوال، يوم سافرنا نقدس.. على عهد الدراهم يوم كانت فضة.. سافرنا وما معنا إلا شوية طحين في زعبة، وعلى أقدامنا مرينا على تبوك، وتيماء، وبلاد أهلها بدو، وبلاد فيها أهلها غجر، وبلاد فيها الطيب والبطال، وما وصلنا حتى مرضنا وتعافينا، ومرضنا وتعافينا، وجينا..

الله، يا جماعة على هاذيك الدنيا.. سبحان الله..أرض جنة..الفواكة من كل الأشكال..والدنيا.. والسيارات على كل لون.

قال مسفر:

- (يقولون الجنة هناك !.

واصل أبو صالح:

- دخلنا عن طريق العقبة مع واحد بدوي اسمه.. اسمه.. الله يعطيني على اسمه.. أيوه.. اسمه غظيان.. على جمل قرحان أسود، وكان ولدي صالح بيموت من المرض.. وكان يقذف دم من الحمى..والبدوي غظيان، الله يذكره بالخير، عمل فينا خير.. أركب صالح على الجمل.. الله يالدنيا.. كانت بخير.

لحس « أبو جمعان » شفته السفلى بطرف لسانه، وقال:

-الدنيا لازم يكون فيها.. اولاد الحلال .

قال « ابو صالح »:

-(نعم).

واصل:

- دخلنا على عرب خلقتهم من احسن ما خلق الله.. حمر.. والواحد منهم طوله قامة ونص منا.. شواربهم طويلة،وكل واحد عنده فرس تسوى الدنيا.. ولهم نسوان.. الواحدة كما الثريا... سبحان الله.. أقول لكم..!

قال مسفر، وهو يتهيأ بكل مسامه:

-(طيب يا بو صالح..)

قال أبو صالح:

- " بتنا عندهم هذيك الليلة، وفي خيمة واحد منهم.. جابوا لصالح جبن مملح، ودهنوا راسه وأقدامه بالسمن. قالوا لنا بعد مارطنوا مع بعضهم، صالح ولدك تعبان ولازم يستريح عندنا. قلت لهم.. صالح شاب.. ثلاثة وعشرين سنة.. وان شاء الله يتغلب على المرض ويخف منه.. و احنا لازم نروح القدس بكرة عند الشروق.

وبعد ما ودعنا البدوي غظيان، وراح لأهله.. ومن صبح اليوم الثاني.. جهزوا لنا فرس.. كان معهم واحد بفرسه، علشان يورينا الطريق. خرجت نسوانهم اللي كما النجوم.. قدام الرجال مختلطين.. وودعونا.. ركب صالح خلفي، على الفرس، وتمسك با يديه في جنوبي. وتقدمنا الشاب بفرسه كما الريح.. أما انا لأول مره أركب خيل.. اضحكوا ياجماعة الخير".

قالوا، والانتظار على وجوههم:

-(خير).

واصل، وكفه قد بدأت ترتفع وترتخي مع الكلام:

-مسكت الرباط في يميني و هزيت الخيل برجلي.. وأبى يمشي حاولت.. حاولت.. ما فيه فايدة.

بعد قليل عود علينا الشاب بفرسه. و قال ليش ما تمشي خلفي ؟ قلت له الخيل ما رضى يمشي. ضحك مني و قال أظنك يا حجي ما ركبت خيل ؟!

استحيت، و قلت له يمكن خيولكم لها طريقة ثانية !!

تلمح فيه شوية، و قال و هو يضحك:

- يا حجي، أمسك الرباط في أيدك الشمال، و هز الخيل برجولك.

وفعلاً.. ما مسكت الربط في شمالي حتى انطلقت الخيل كما الريح.. ورحت أشد برجولي على بطن الخيل، وقلت لصالح: توثق وامسك بجوانبي.

ما جاء بعد الظهر حتى قربنا من مدينة القدس، وتركنا الشاب هو وخيوله.. بعد ما وصاني كثيرًا على صالح.. الله أكبر.. ناس الله يذكرهم بالخير).

قال العم سعيد الأعمى ويداه تلعبان بكتلة الجبة:

- طيب يا بو صالح.. وبعدين؟

- المهم يا جماعة الخير.. دخلنا.. أغراب.. أغراب في لبسنا، وخلقتنا، وزعبتنا معنا.. فيها طحين وجبن من عند العرب الغجر اللي بتنا عندهم.. ودخلنا المسجد.. يسمونه المسجد الأقصى.. دخلنا ما نعرف لا زيد ولا عبيد.. لقينا ناس من اليمن وكأنا لقيناكم.. سلمنا عليهم.. قالوا لنا احنا جايين نقدس وندور على شغل. قلنا لهم واحنا كذلك.. وربنا جمعنا على

الخير.. عشونا معهم هذيك الليلة على طحيننا وطحينهم.. سوينا عصيدة ولبن.. وكل شوية نقدم نفوسنا عند المحراب ونتلمح.. يا ليتنا كنا نصلى.. لكن كنا نتفرج على المسجد اللي فيه ناس أشكال وألوان، وفيهم نصارى ويهود.. خلقتهم باينة.. ويرطنون بدعاء ما فهمناه.

اخرج أبو جمعان علبة التمباك.. راح يوضب سيجارة.. قال:

- والمهم.. يا بو صالح.

قال:

- والمهم..

فرقتنا الأيام مع اليمنيين، ورحنا كما الهبل نتمشى في مدينة القدس وندور على شغل.. قالوا لنا ناس عرب.. الشغل موجود.. واشتغلنا بقوت يومنا.. وكل شهر يعطون ما يساوى ريالين فضة.. ريال ينطح ريال.. شوية.. شوية.. وقامت الدنيا.

قال مسفر:

- كيف يعنى؟!

قال أبو صالح:

- يجيك العلم يا سيدى.. قامت الحرب على عهد الإنجليز.. كانوا يعطون اليهود السلاح والرشاشات.. والعرب ما كانوا يدرون.. كانوا يحاربون ببعض البنادق الفاسدة والعصى.. وطاح ناس كثيرين.. ما توافي الحرب من حصد رصاص اليهود.. منهم واحد يسوى قبيلة من قرية بنى كبير اسمه عبد الله.. الله يا ذاك الرجل اللي يسوى كل اليهود.. وناس طوال أشناب من زهران وقحطان.. وياما ناس.. تطوعوا في الحرب مع العرب..

وماتوا.. والله ماتوا من أول ما بدأ الحرب.. يا خسارة الرجال.. لكن المشكلة قوة اليهود برشاشاتهم وسلاحهم.. ونحن مثل ما قلت لكم.. بعضنا معه بندقية وبعضنا معه عصى.. والسلاح ما يقابله إلا السلاح.

كان فم العم سعيد الأعمى مفتوحًا إلى فوق.. قال:

- وصالح.. وين راح؟

قال:

-" ولدي صالح.. كان بعيد عنى.. وكنت خايف عليه.. لكن الرجال اللي طاحوا نسّوني ولدي ونسوني الدنيا.. وشوية الرحمن.. ماحسيت إلا وأنا طايح على جنبي الشمال، والدم يخر.. نسيت نفسي.. وبعد أربعة أيام صحيت في مستشفى عمان، وعندي ناس كثير أعرف بعضهم وبعضهم ما أعرفه معهم ولدي صالح.. نشدتهم: ايش جرى؟!

قالوا لي.. خير.. حرب اليهود ما سلمت منها.. هذا رصاص يا بو صالح..

رفعت أيدي وقلت: الله يكفينا فيهم وفيمن يعاونهم.

وقعدت في المستشفى أربعة شهور.. انجرحت في المفصل عند المثانة.. تصوبت بصواب رشاش.. جاء على المسدس اللي كنت أحمله"..

وقف «أبو صالح» خلع جبته الحمراء، وكشف عما فوق سرواله الطويل الأبيض،فبان مكان الجرح:

رقعة لحم مستديرة فيها مكان العملية.

قال مسفر:

-"والله صواب ماهو سهل.. لكن ربك سلم"

قال واحد من الجالسين

-" والله يابو صالح لو كنت ذبحت عشرين راس من الغنم فداء".

علق أحدهم وهو يضحك:

-"أبو صالح أهل الكرم.. يمكن يدسم شواربنا بريحة ذبيحة "

قال «أبو صالح» وعلى وجهه ابتسامة:

-"يا ماذبحنا من فداء.. لكنكم جماعة تستاهلون كل خير "

قال مسفر، وهو يفرك يديه السمينتين، متلهفا: -»طيب يابو صالح.. وايش هي قصة أهل فلسطين مع اليهود ؟".

رد أبو صالح بأنة طويلة. كان قد جلس و وضع جبته على كتفيه:

- " ايه.. ايه.. القصة طويلة.. هاذول اليهود بمساعد من الإنجليز يقولون إن أرض فلسطين لهم. و فلسطين هذه الأرض جنة معروف إنها للعرب جيل عن جيل.. لكن مثل ما قلت لكم.. قدروا اليهود بسلاحهم، و سلاح الإنجليز، و الأمريكان كانوا وراهم.. قدروا يحتلون الأرض بالسلاح.. بالقوة، و بالفلوس.. كانوا يشترون من الأمير عبدالله ملك الأردن هاذيك الايام.. يشترون الأراضي و يبنون بيوت جديدة على طراز حديث.. وشوية.. شوية.. سووا كباين و مستعمرات.. و طردوا أهلها عرب فلسطين.

لكن هذيك الأيام كانت الدنيا نايمة، و العرب كانوا نايمين.. ما كانوا يدرون كيف يتصرفون.. واهي مشكلة كبيرة.. وطويلة عريضة.. من هاذيك الأيام.. تشردوا أهل فلسطين.. ومات أعداد.. و هاجر ناس.. و سافر منهم ناس يجون يدورون شغل عندنا.. مصلحين دوافير، و مدرسين، و مصلحين

سيارات في مكة و غيرها ".

قال مسفر:

- " حكم سعود جاء بخير.. لكن قلت البركة.. و قل الخير من السماء و شحت الأرض ".

قال واحد:

- " الدنيا كان فيها البركة. و اليوم تغيرت الأحوال.. انتزعت البركة ".

قال أبو صالح :

- " المسألة مسألة قلوب الناس و تعاونهم مع بعضهم.. يد الله مع الجماعة.. والبركة معهم وين ما حلوا.. حلت "

***

هبت رياح طرية.. أخذ المغرب يقترب. أشعلت بعض البيوت في الجبل مصابيحها. قال أبو صالح إن المغرب يقترب، وأكد بأن أخرج ساعة الجيب الفضية المعلقة بسلسلة دقيقة على جيب الصدر. قرأ عقاربها المضيئة وقال إنها إحدى عشرة ونصف.. ويجب على من يريد الوضوء أن يأخذ إبريقًا من الأباريق (المعدنية المتناثرة عند الحنفية الزنك) ويفتح «بزبوزها».. يملأ الإبريق ويتوضأ في الساحة الواسعة.

قال أبو صالح بعد الصلاة.. وهو ينهي التسبيح، ويتهيأ لركعتي السنة:

- وجه الله يا جماعة: اللي يقدر يبات عندي.. يتعشى.. وبعدها يسرى عند عياله.. الله يحييه.

قال أحمد بن صالح، وهو يعدل من عمامته مرتعشًا:

- خلاص.. يا بو صالح.. أنا عيالي راحوا من بدرى من الوادي، وولدي عبد الله عندهم، وبابات معكم الليلة.

قال أبو صالح متهللاً:

- الله يحييك يا بو عبد الله.. معنا الليلة قطعة لحمة.. وبنسوي عليها مرقة وعصيدة.. علشان سهلة.. الله يحييك..

كان أحد أولاد أبو صالح قد ملأ مصباح الجاز، أحسن شعلته، ثم وضعه في مجلس الرجال، إلى جانب راديو البطارية الكبير، ووضع فراشًا مريحًا للجلسة، وحوله عددًا من المخدات المحشوة بالعلف.. وعلى الأولاد أن يلزموا الهدوء، ويحترموا الكبير، ويسمعوا الحديث.. ولا يمدوا أيديهم إلى قطعتي اللحم الفائحتين بالريحة المحبوبة قبل الأب أو الضيف. سينالون نصيبهم، ثم يأخذون دفاترهم وأقلامهم وينهمكون في الدراسة تحت ضوء المصباح.

أمهم وجدتهم وأخواتهم في الداخل.. يتعشون العصيدة والمرقة، واللحم للرجلين، على فانوس بخيل الإضاءة.. لكنه يكفي حتى يحين وقت النوم، يصحون مبكرين.. يعملون القهوة بالجنزبيل.. ثم يسرحون قبل طلوع الشمس إلى الوادي.

5

العم يزور (أبو صالح)

قالت زوجة أبو صالح وهى تحدث جارتها عند البئر:

- البارحة سمعنا في الراديو أغاني طيبة.. حقة سميرة توفيق.

قالت، هي تحبها أكثر مما يحبها كل الناس.

وقالت:

- أغانيها.. تصلح للحن جديد.

وغنت على طريقتها:

- يا له للا.. لا.. لال.. للاله.. لا.. له للا.. يا أحباب الضيف.. ضيف الله.. أحباب الضيف.. ضيف الله.. يا له للا.. يا.. للا له.. يا له للا.. يا للا له.

امتد صوتها ببطن الوادي، كان صداه يلعلع في الجبال القريبة المتقابلة.

قالت جارتها:

- وطي صوتك يا ختي.. لا يقولون عندنا عروس.

وردت:

-" يا له للا.. يا للا.. ياله للا يا للا له.. يستاهل اللي على بيت الحنش ياهب ايده".

بحماس وتأن:

-"ايوه.. يستاهل اللي على بيت الحنش ياهب ايده".

وضحكن بمرح.. ثم اخذن في إنزال الدلو إلى البئر

في الطريق الممتد المعوج، الصاعد، الهابط.. في منحدر الجبل، تحت البيت.. قابل أحمد أمه، وهي تحمل القربة السوداء المنداة على جنبها الأيمين، والماء يتقاطر قليلا.. قليلا، يبلل ثوبها ويروح يبلل سرواها العريض، والطويل.

قال أحمد:

-" يا امه.. أبي يقول هيا.. فيه ضيف في البيت ".

أسندت الأم قربتها إلى جانب حجيرة مبنية على الطريق، مرتفعة في البناء إلى حدود الحزام، تهف بصوت مسموع، نظرت إليه في عتاب.. قالت:

-"أحمد.. ما لبست عمامتك عشان البرد.. الله يهديك يا ولدي !"

قال أحمد انه جاء مستعجلا حتى أنه قد نسى أن يلبس حذاءه.

مسحت على رأسه برفق شديد.. أحس بموجة من البرودة والحنان، وسمع صوت الخرز الملتف بمعصمها.. أحس كأنها تدخل دماغه.. ورفع رأسه.. قالت عيناه في استحياء مكتوم:

(هل تحبينني يمّه)

احتملت قربتها، واندفعت مشيرة إلى ابنهالكي يمشي أمامها. فهو

رجل،ولايصح له أن يمشي خلف « الحرمة ».

عندما وصلت إلى البيت، وجدت ابنتها قد أعدت قهوة مقبولة، وقدمتها باليد اليسرى، والفناجين باليمنى، لأبيها وخالها.

قال خالها:

-" ماشاء الله.. الله يبارك في ياغلتي.. حرة.. والله حرة.. صرتي عزبة.. ماشاءالله ".

نظرت خضراء عند قدميها، وكادت الدلة تنزلق من يدها، لكنها احكمت قبضتها، وناولت خالها فنجانه وهي واقفة.

قال خالها:

-" أسلمي.. أسلمي.. ناولي أبوك الأول ".

ومدت يدها بالفناجين لأبيها.. قال:

-"سلمت الحرة.. يعطيك العافية يابنتي"

جلست، أخذا يتحدثان في مستقبل حياتها، ومشروع الزواج البعيد، خضراء تنهكمت بكل جوارحها، في حياء شديد.. كانت تسمر عينهيا في طرف الدلة أمامها. لم تحرك ساكنا، أو تتفوه بتنهيدة واحدة.

دخلت الأم، كانت تلبس شرشفا نظيفا، رائحته تقول انه مكث طويلا في الملابس المعطرة بالبخور، قالت لأخيها:

-"أنا فداء أخي.. سلام. كيف حالك"

ودلفت تقبله قبلات سريعة، وهو يرد:

-"كيف حالك.. الله يسلمك.. الله يعافيك.. كيف حالك..الله يسلمك..

كيف حال العيال"

وتجيبه:

-" الله يعافيك ويسلمك.. كيف حالك.. الله يسلم راسك.. كيف حال عافيتك".

وسألت بالسلام عن أمها، وعيناها تنضحان ببعض الدمع:

- كيف حال أمي.. لي مدة ما شفتها.. إن شاء الله تكون بعافية.

رد بابتسامة، مليئة باللطف، بأنها بخير. وسألها عن صحتها.. وقال:

- ليش ما تجين تسلمين عليها.. يعنى مسافة ساعتين.. ولا نسيتي أهلك عشان بعيدين؟

اعتذرت اعتذارًا مقبولاً.. أشغال الوسمية والبيت، والعيال، يجب مراعاتهم، وملاحظة التشديد على الدراسة. وعددت الكثير من الاعتذارات التي لا يمكن لفاهم مثله أن يلومها عليها.

وقال أبو صالح:

- إن شاء الله نيجي كلنا.. بعد ما نخلص الوسمية.. ومثلك عارف البئر وغطاها.

ابتسم في محبة، ضاربًا بيده اليمنى على صدره، مظهرًا ترحيبه الشديد، واستعداده الكريم.. وسأل خضراء عن إخوتها.. قالت:

- يلعبون في الساحة.. تحت اللوز.

سأل أبو صالح:

- هل أعلفتم المشدود؟

قالت زوجته:

- آخا.. أعلفنا حمارة أخي، وحطينا شدها.

وأشار إليها، بغمزة، فهمتها.. ستعد غداءً طيبًا.

استأذنت بخفة إلى الداخل.. لتعجن وتعمل أقراصًا خفيفة بالسمن إلى جانب التمر، حتى يؤدون صلاة الجمعة مع الجماعة، وينزلون.. فيجدوه جاهزًا.

فكرت، وهي تعد العجينة، إن كان لديها شيء من البيض. عندما نزلت إلى عشة الدجاج لم تجد إلا بيضتين. رأت أن تذبح إحدى دجاجاتها السمينة.

نادت أولادها من ساحة البيت السفلى.. تحت شجرة اللوز. طلبت منهم أن يصطادوا الدجاجة الصفراء، انطلقوا.

لم يكن أبو صالح يتوقع هذا الغداء الدسم.. لكنه سلم في نفسه:

(حكيمة، وتحسن التصرف).

طلب من خضراء النزول للوادي القريب.. تقتلع أعوادًا من البصل الأخضر، وفعلت.

بعد الغذاء، والتكثير بالخير، استدعى الخال أولاد أخته، دعا في البدء خضراء وأحمد.. قعد الأولاد إلى جنبه وهم يتدافعون ويتضاحكون بخجل.

أخرج الخال حافظة جلد تلمع. فتحها.. كانت بجنبين، وفي أحدهما صور له ولأولاده.. تحاشد الأولاد، أرسلوا تحديقاتهم باهتمام نحو المحفظة.

أعطى كل واحد منهم.. بالتساوي.. قطعة نقود فضية.. كل قطعة أربعة قروش.

قالت القروش وهى تنخرط: رنق.. رنق. كانت الفرحة المباغتة تملأ قفزاتهم، وهم ينطون، واحدًا.. واحدًا.. يقبلون خالهم.

وقال الخال:

- شموا أبوكم.. سلموا عليه.

.. قبلوا أباهم، ودخلوا عند أمهم. قبلتهم وفي يقينها هاجس! سيجيئ لها نصيب.

(6)

الماطور

منذ أول الصباح، مذ صاح الديك عند أول خيط أبيض من الفجر، كان الناس قد توزعوا في الوديان، يسقون زرعهم.. وكان فرحان قد جاء «بماطور» يعمل بالبنزين، ذهب الجميع وقتها يتفرجون عليه. كان حديث الناس:

(ماطور يطلع الماء من البئر. يحتاج إلى سلم طويل من الحبال الجيدة، ويحتاج إلى صينية خشبية تحمله، تربط بالحبال الوثيقة وتكون قريبة من الماء.. تشترك في إنزالها أيدى الرجال).

قالوا: (اشتراه بالتقسيط من مكة). وحمله على جمل سعيد بن أحمد، وإلى البر أنزلته أيدى الرجال، وثبتوا أحزمته.. ربطوا أحدهم بحبل في وسطه، ونزل إلى قاع البئر. يقولون إن طولها اثنتي عشرة قامة من قامات الرجال الطويلة.

أخذ، بين أسنانه، حبل التشغيل، ونزل واحدة.. واحدة. قال للذين على رأس البر: (خلاص.. وصلت). وحل الحبل من وسطه، وبدأ يلف الحبل على المروحة، وينزعه بقوة ليشتغل ويدفع بالماء إلى أعلى.

غير أن الماطور عاند معه، وفي كل مرة يشتغل قليلاً وينطفئ فجأة، ليشتغل.. وينطفئ، يشتغل.. وينطفئ.

امتلأ بلعوم البئر بالدخان الخانق، حتى غاب الرجل عن البصر. بعدها اشتغل الماطور و دفع الماء إلى أعلى، قالوا: (يا سلام على الماطور).

هزوا الحبل هزات، فلم يجب الرجل من أسفل البئر. كان الدخان مثل الضباب يندفع من أسفل. تحلقوا حول رأس البئر، أطلوا برؤوسهم. لم يستطيعوا إبصار شيء في القاع. الدخان شديد برائحته خانقة.

نادوا باسم الرجل، و لا من يجيب.. إلا صوت الماطور مثل الساقية العالية الهدير.

قرروا أن ينزل أحدهم ليرى ما يجري، ربطوه بالحبل في وسطه، و دلوه قليلاً قليلاً. كان يتنفس بصعوبة بالغة.

و صاح، من أسفل، صيحة مخيفة:

- " الرجل طاح.. وينكم.. الرجل مات.. الحقوا.. وينكم ؟! "

ملأ الفزع المفاجئ حركتهم. تدافعوا. قالوا: « اطلع ». و شدوه بقوة.

كان يتنفس بصعوبة. ضرب على جبهته عدة ضربات بكف يده اليمنى. قعد على أطراف أصابع قدميه.

كان يردد:

- " الله.. يا خسارة.. الله ".

تطوع أحدهم، و كان شابا عنيفا، بالنزول مربوطا بالحبل من وسطه و في يده حبل آخر.

تماسكت شجاعته و فراسته. ربط الجثة المختنقة، و صاح:

- "اسحبوه.. اسحبوه".

و شدوا الحبلين. أحتضنه بعد ما اوثق الحبل في وسطه. كان لسانه خارجا من فمه، ينزف الدم. عيناه ظاهرتان كالبيض.

صاح واحد:

- " الرجل راح خلاص ".

احتد آخر:

- " اسكت.. عرفنا.. أنت ما تعرف الكلام ".

قال آخر:

- "خلوا واحد منا يطلع على الجبل، و يرفع صوته.. يدعي الجماعة ".

انطلق شاب مثل الجرادة، وصاح بأعلى صوته:

- " ايه.. ايه.. طاح طايح في البير". كررها عدة صيحات و عاد مهرولاً.

قال واحد:

- " بدل ما تدعون الناس.. و تجمعوا النسوان.. كان خلاص.. أرسلنا واحد يجيب كساءه من القرية، و نشيل الرجل على خشبة عريضة".

وافق بعضهم.. رأي معقول و صحيح.

لكن صاح صائح. و سمع الناس الصياح، لن يسكتوا. كلهم يجيئون في طرف عين. لم يمض وقت.. تناثر الصوت من واحد إلى واحد. و من الراعي إلى سارح الوادي.. إلى واحدة و منها إلى واحدة.

امتلأت الأرض الزراعية، المحيطة بالبئر، بالناس و الفوضى. و غلبت

الحادثة على كل تقليد. جاء الشبان و جاءت الشابات. جاء الرجال من كل سن، جاءت الحريم. و حتى العجائز اللواتي لا يخرجن إلا فيما ندر.

كانت الولولة تأتي وتروح، ترتفع.. و تنخفض. جاءت أم الميت مع من جاء على داعي الصوت، وقد ذهلت. لم تصدق أنه ابنها. وقعت مغشيًا عليها. حملتها النساء إلى البيت. رششن على وجهها الماء. أسرعت واحدة إلى صندوق ملابسها، أحضرت قارورة عطر من (الحبشوش).. لا يخرج إلا في مناسبة غير عادية.

سحبت سدادة الفلين التي تغلق فتحتها، دلقت منه قليلاً، ومسحت به مسحًا جيدًا على وجه المغشية وجبينها.

كن قد أحضرن عددًا من الوسائد المحشوة بالعلف.. أقمنها على هيئة مبعثرة حول رأسها، وجنبها، وقدميها.

جاءت واحدة بكسرة مرمرية من البخور، وضعتها في «المجمر» على عدد قليل من الجمرات، فارتفعت ضبابيته خيوطًا تملأ جو الغرفة المظلمة بالرائحة.

قالت إحداهن، عارفة بأمور الإغشاء:

- هيا.. هيا.. وسعوا.. تقدر تتنبه ونتنفس.

طال غشيانها. انتبهت وهي تهذي. قعدت على السرير المصنوع من فتائل الخصف، مدت ساقيها.. راحت تضرب بيديها الممدودتين على ساقيها.. تولول:

- يوه.. يوه.. يا خسارتك يا ولدى.. يوه...

هدّأنها بعض الشيء، عملن لها دلة قهوة كثيرة الجنزبيل، صببن في فنجان

صيني كبير، قلن لها: اشربي.. تفيقي.

أخذت منه ملء فيها.. ما استطعمته. قالت بصوت فيه حسرة وأنين:

- حطوا جنزبيل على القهوة.

قالت التي جاءت بقارورة العطر:

- (يا بنت الحلال.. قولي لا إله إلا الله.. كلنا بنموت، وأردفت النساء المتحلقان بتعليقات متتالية، فيها الكثير من التخفيف، والصبر، وتذكر القدر، وفعل الله في بنى آدم.

كان الأولاد قد تجمعوا، مثل الذباب، حول الجثة. زاد فزعهم، وزاد ضجيجهم. حركتهم أزعجت الرجال، نهرهم واحد من الواقفين، كانوا يخافون ضربه:

- هيا.. يا الله.. انقعلوا.. دوشتمونا.. يا الله.. يا الله..

تراجعوا للوراء في خطوات مرتبكة.

في تلك الدقائق، كانت بعض المواشي قد تعدت على زرع الناس، وبعض الغنم فلتت من قطعيها.

في الوقت ذاته، كان الرجال قد غطوا الميت بكساء تفوح منه رائحة بعيثران. غطوه وربطوه على خشبة استوعبته إلا قدميه، ظلتا ممدودتين وخارجتين. لكنهما سرعان ما غطيتا بحركة سريعة من أحد الرجال. كادت الأرض الزراعية المحيطة بالبئر تخلو من الناس إلا قليلاً! ترك الناس مكان الزحمة والحركة.. مواطئ الأقدام مختلطة، سحقت مساحات متفاوتة من نباتات القمح، والشعير، والعدس، الذى لم يطلع ثمره بعد. أمسك أربعة أشخاص بأطراف الخشبة. من الأمام اثنان، من الخلف اثنان.. حملوا الجثة،

بعد ما مسحوا الكثير من الدم النازف، من الفم والأنف، ببعض الخرق المتوفرة، وأحيانًا بالعمائم التي قدمها الحاضرون من على رؤوسهم.

قالوا: (سنغسل الجثة في البيت بالماء الدافئ).

تقاطر الناس في طابور متداخل.. أما النساء فقد سبقنهم إلى بيت الميت، عند الأم التي هدأت قليلاً، وألبسن حالتها بلباس من الدعاء الكثير، والاستغفار، والندب.

أدخلوا الجثة على سرير الأم المصنوع بحبائل متضافرة من الخصف، غطوها بغطاء آخر.

امتلأت الغرفة، أكثر، برائحة البخور.

أخذت النساء بيد الأم، وأقعدنها برفق في الداخل، في مجلس الحريم.

تقدمت ثلاث منهن، أوقدن نارًا مكان مشبّها، في ركن المجلس، انهمكن في إعداد القهوة والشاهي، والشاهي والقهوة.

الشباب، الذي ينفع وقت النوائب، يدلف من مجلس النساء إلى مجلس الرجال. يصبون القهوة في فناجينها، ويقدمونها إلى الرجال الذين ملأوا المجلس إلى حوائطه الأربعة، وملأوا مدخل الباب بأحذيتهم، وملأوا المجلس بالهدوء والاستغفار للميت.

يشربون القهوة والشاهي، والشاهي والقهوة.. سوف يخرجون بعدها إلى السفح الذي ينحدر خلف المباني، حيث المقبرة، يدفنون الميت ربما مع أحد أسلافه من العائلة، إن كان هناك مكان لأكثر من جمجمتين، يتم الحفر، أو اللحد، تجاه القبلة.

انكسر الهدوء الذي كان يملأ المجلس:

- هيا.. اغسلوا الكريمة قبل آذان العصر.

- أيو الله.. إكرام الميت دفنه.

- رحمة الله عليه.. نكرمه بقبره أحسن.

- قبل غروب الشمس.. إن شاء الله.

قال الفقيه إن دفن الميت وقت مغيب الشمس غير مستحب، ولا بد من التعجيل. أدخلوا أمه، بعناية شديدة، إلى الغرفة المظلمة، قبلته في جبينه ووجنتيه. نحبت عند رأسه، وسرعان ما تقدم الرجال بالنعش:

قال الفقيه، بعد الصلاة على الميت:

- يا جماعة الخير.. سامحوه.. وادعوا له.

تمتم المصلون الواقفون تجاه القبلة.

عادوا إلى بيته.. تشاوروا في مساهمات ما يمكن الاشتراك فيه، من تمر، وعدد أقات القهوة، ولزوم الحضور لمدة ثلاثة أيام لإقامة العزاء، ومقابلة المعزين من القرى المجاورة.

قالوا إن زوجته، التي طلقها قبل سنة، بسبب عدم الإنجاب، بكت عليه.

***

الوسمية شغلت الناس.. زرع ويحتاج للسقي، يحتاج للرعاية، ويحتاج للملاحظة، بين وقت ووقت، من الأغنام التي يهملها راعوها، أو تعدي الحمير المتسللة التي تأكل الجهد وتأكل الرزق.

قالت النساء في الوادي إنهن لا بد أن يساعدن أم الميت (مات وحيدها) في إحضار الماء، وإحضار لقمة لها بين حين وحين. هي عجوز وتحتاج

للمساعدة اليومية.

قالت واحدة إن جارتها لا تتفق معها كثيرًا.

وقالت: سنلاحظ زرعها.

اتفق الرجال على بيع الماطور، ودفع ثمنه لأم صاحبه.

بعد السؤال عن بقية الأقساط ستحتاج إلى جزء من القيمة، إلى أن يأتي الله بفرج من عنده. قال مسفر إنه يريد شراء الماطور.. عنده عيان سيتصرفون بحكمة.. والبئر التي سيضعه عليها ليست بطويلة.

قال إنه سيدفع الثمن مقدمًا للعجوز، وسيقسط بقية قيمته على فترات، حسبما يسمح الحال، وإذا ما تبقى من القيمة شيء يذكر، فلن يؤخره بعد انتهاء الوسمية.

قال العم سعيد الأعمى:

- يا مسفر.. أنا أخوك.. إذا كنت رجل بتدفع حق المسكينة، وإلا فلا تشتر الماطور.

أجاب مسفر:

- الله يقدرنا على حق المسكين.. ويغنينا عنه.. إن شاء الله يا سعيد نقدر ندفع حق الماطور.

اصطحب مسفر العم سعيد إلى أبو صالح للتشاور وقطع الوقت.

قال أبو صالح:

- يا مرحبًا.. من يوم مات الرجل، ما شفت هذي الوجوه الطيبة.

نادى بمن في الداخل:

- يا عيال.. يا للي داخل.. ودنا قهوة من ايدك!

سمعت زوجته. لم ترد.. أحضرت حزمة من الحطب، شققته بالفأس، أوقدت القبس، وضعت الكانون، تناولت القهوة وحب الهيل والجنزبيل، وضعت «المحماص» لتحميص البن، حتى استوى بنيًا فاحمًا يتوقد ويفرقع. حطته في «المهراس» ووضعت الدلة مملوءة بالماء على القبس.

سمع أبو صالح وضيفاه رنين المهراس. علموا أن «المرة» تصنع القهوة.

قال أبو صالح موجهًا الحديث للعم سعيد:

- رأيت أبو جمعان يا سعيد؟ ما شفناه من يوم ممات الرجل!

مضغ العم سعيد لسانه، وطن بشفتيه.. قال:

- لا والله يا بو صالح. لكن مرته تقول.. مشغول بالوسمية.. وأنت عارف مشاغل الوسمية.

قال مسفر:

- أيو الله.. كلنا مشغولين بالوسمية.. وربنا يعدلها بخير.

صاح أبو صالح بالأولاد، وهم يحاورون كرة صغيرة، صنعوها من الخرق البالية، في الساحة. كان ضجيجهم عاليًا:

- (يا عيال.. يا جن.. روحوا اقرأوا دروسكم.. بطلوا اللعب.

استمروا في اللعب، في حدود ضجيج مكتوم.

صاح ثانية:

- هاه.. عافوا اللعب الفاضي.. كل يوم كورة.. كورة.. وآخر السنة تجون تبكون.. وبعدين؟! يا الله!!

قال أحمد، في خجل، بصوت متمرد:

- خلاص.. قرينا دروسنا.. ما فيه حاجة.

استطاب أبو صالح الرد، قال:

- تعال يا مالي.. ادخل هات القهوة.

مرتين أو ثلاث مع الرفاق، وهرول جاريًا وسط الساحة، دخل من الباب الخشبي المطلي بالقطران الأسود المزروع بالنقوش إلى مجلس النساء، قال:

- هاتي القهوة!

قالت أمه:

- أعطيك القهوة عشان تكبها.. افلح.. انت ما تقدر تمسح مخاطتك.

رد أحمد، في ضيق:

- ليش أكبها.. هاتي.. أنا رجل.. أقدر أشيل الدلة والفناجين.

قالت بريبة:

- والله ما أدرى.. لا تروح تكبها.. هيا تعال.. امسك الدلة في الشمال وضع الفناجين في اليمين.. يالله..

حملها، وبخطى حذرة مشى من الساحة. أحس بحرارة الدلة في يده. وقبض بقوة على قطعة الخرقة، شد أصابعه، تقدم خطوة.. خطوة، ودخل من باب مجلس الرجال.

قال أبو صالح:

- على مهلك.. واحدة.. واحدة.. راجل.. على مهلك.

عض بأسنانه العليا على شفته السفلى، غرز عينيه، على مهل، في يده

الشمال. صب في فراغ أعلى فنجان من رصة الفناجين في يده اليمنى.. امتلأ الفنجان إلى خيط النبي.. ناول أباه الفنجان.

قال الأب:

- اسلم.

وأضاف:

- إذا جبت القهوة.. لازم تصك بالفنجان في عنق الدلة.. لكن صب لعمك سعيد وعمك مسفر.. ضع الدلة، وروح قول لهم داخل.. هاتوا لنا صحن تمر.

حط الدلة بعناية، على مهل. جرى نحو أمه.

بعد قليل جاء بصحن صغير فيه تمر متماسك.. مثل العقيق الأحمر.. يقطر دبسًا.

كان لعابه يسيل، ومخاطه يسيل، طول الطريق القصير. وصاح الأولاد:

- تمر.. تمر.. يا أحمد.. هات هب لنا.. حبة.. حبة بس.

نهرهم أحمد:

- عيب.. حق الضيوف.

وضع الصحن أمام الضيوف، في الوسط. قال معتزًا:

- تفضلوا.. الله يحييكم.

تناول أبو صالح ثلاث تمرات، قال لأحمد:

- خذ.. أعط رفاقتك في الساحة.

وأعطى أحمد ثمرتين.

خرج أحمد.. نادى رفاقه. اشتبكوا في حوار بالكرة، ناولهم التمرات، كل واحد.. واحدة.

مد يده بواحدة للثالث.. قال:

- خذ.. خذ يا غرم الله.. أنا وأنت فريق.

قال غرم الله:

- يا سلام.. يعنى أنا آخر واحد تعطيني.. هات وإلا خذها!

قال أحمد:

- والله.. والله.. أنت بتاخد أحسن تمره.. ما أنا قط يسترجع قذفه.. أنا جبتها لك!

ناداه أبوه من الداخل:

- أحمد.. تعال صب القهوة.. عيب عليك تتركنا وتروح.

قال أحمد:

- أيوه يا أبه.. أنا جاي.. جاي.

وهرول إلى الداخل.

بعد ما انتهوا من شرب القهوة، إلى آخر فنجان من الدلة.. قال العم سعيد الأعمى:

- يا أحمد.. روح يا مالي.. وحط لي إبريق ماء.. أبغى أتوضأ.

(7)

أبو جمعان مع ضيفه

كان أبو جمعان يقعد بين الزرع، وعلى حافة فلج الماء، الذي شق له بالفأس طريقًا بين التربة، فخلق طينًا رطبًا، يشبه إلى حد بعيد لون البن المحروق.

وكانت أصابع قدميه قد انغمستا في الطين، فاختلط لون القدم بلون الطين.. أصبحا متشابهين.

في اللحظة التي تهيأ فيها لنزع ورقة من «ورق الشام» الأبيض، وقد ضغط على مقدمة العلبة الفضية فقالت: طق، لمح في الطريق الجبلية رجلاً بثياب نظيفة، في وسطه حزام عريض، بيده مشعاب قصير.. يمشي ويهز مشعابه مع مشيته المعتدلة.

صرف نظره إلى الدخان، يوضب سيجارة، على مهل.

ذهب فكره بعيدًا، للقرية المجاورة، وراء الجبل.. منذ زمن بعيد لم يلتق بصديقه عطيه!

دارت برأسه صور متقافزة، أقربها صورة الرجل الذي لمحه عن بعد قريب في الطريق الجبلية، القادم من القرية المجاورة.

نفث نفسين طويلين من التمباك، سعل سعلة محشوة بالنحنحة. أخذ يخلل لحيته مبرومة الشعر. كانت سيجارة التمباك الأخضر ترسل دخانًا أزرق مبخرًا برائحة قوية، من بين أصابع يده اليسرى.

لمح الطريق بنظرة خاطفة. كان الرجل القادم قد اختفى إلا رأسه في موطئ منخفض، وبان عقاله الأسود المنفرج قليلاً.. قليلاً.

اتضح لأبي جمعان عن قرب، ومن فراغات أشجار الطلح الممدودة، القادم بالضبط. هو صديقه عطية. قال في داخله: (ما يطرأ الذيب إلا وهو قريب).

قال بصوت سمعه عطية، بنقاء ومحبة:

- الله يا الدنيا.. يعنى لو ما نسأل عنكم.. ما تسألون؟!

عجن عطية صوت أبو جمعان في أذنيه برخاوة، ورد:

- مصير الحى يتلاقى.. يا بو جمعان.

وقف أبو جمعان على قدميه المبلولتين بالطين، استل أصابع قدميه باندفاعة إلى فوق. ألقى بعقب السيجارة في الفلج، فقالت: طش. مسح على شدقيه ببطن يده اليمنى. تقدم إلى الأمام، ما يقارب ثلاث خطوات، مد ذراعيه بطولهما نحو صديقه.. وكان يبتسم عن أسنان بقيت في المقدمة صفراء قانية:

- حيا الله الغائب.

تصافحا بحرارة. وقبلا بعضهما: هنا واحدة في جانب الخد الأيمن.. هنا اثنتين في الأيسر.. وهنا اثنتين أخريين في الأيمن. نظرا في وجهى بعضهما.. تبادلا عددًا لا يحصى من:

(طيب، وكيف الحال.. ايش الأخبار، طيب، وكيف الحال.. طيب،

وكيف الحال؟!).

قال أبو جمعان إنه سينتهى بعد قليل من توريد الماء للقصبات التي لم تذق الماء بعد.. ويمضيان إلى البيت.. سيجرى الماء إلى الزرع المجاور، أو سيسد المجرى لحين ما يمتلئ في صباح الغد.

في الطريق إلى البيت تحدثا عن أحوال الزرع، والعيال، وأسعار السلع في سوق الخميس. قال عطية إن سعر التمر والحنطة لم يسبق أن ارتفعا بهذا القدر. قال إنه اضطر لشراء أربعة «أمداد» من الحنطة. (قلت الحنطة في البيت.. والعيال يفضلون خبزة الحنطة عن أي خبزة أخرى).

عندما اقتربا من ساحة البيت، راح أبو جمعان يطوف بضيفه، يحدثه عن مشاريع بيت ينوى بناءه، عقب الوسمية. شرح له أن العيال كثروا، ويحتاجون لسعة أفضل في السكن.

رأى عطية أن أبو جمعان لن يتعب كثيرًا في إحضار الحجارة، فالجبل ليس ببعيد عن البيت.. (تنقل الجمال الحجارة من هناك.. إلى هنا.. كلها مسافة شرب سيجارة).

كان الوقت يهبط نحو آذان الظهر. طلب عطية إبريقًا للوضوء. وراح، في الساحة الفسيحة، يبول ويتوضأ.

بعد الصلاة جيء بالغذاء، عملته زوجة أبو جمعان، يفوح برائحة السمن. وسأل عطية عن زوجته، وعن العيال.

قال أبو جمعان، وهما يدحرجان لقمهما في السمن.. إن هذا السمن نظيف وجديد، من عمل أم جمعان. وعلى عطية أن يأكل.

كان عطية منهمكًا في الأكل. وكان أبو جمعان يحلف، بين كل لقمة ولقمة، على عطية بالاستزادة!

حامت قطة بيضاء بأولادها. غمس أبو جمعان بعدد القطط لقيمات في السمن، وضعها على سفرة الخصف، تدافعت القطط نحو يد أبو جمعان. دفعها برفق إلى حيث وضع اللقيمات. اجتز لقمة كبيرة.. غمسها، ووضعها أمام الأم.

قال أبو جمعان محدثًا ضيفه إنه يحب القطط، ويكرمها دائما من أكلهم.

تواصل الحديث عن القطط، والفئران. وتذاكر الرجلان ذاك الزمان الذي هاجت الفئران فيه. وذكر عطية حادثة الفأر لما غزا، في ليلة مظلمة، شحمة أذنه، وكاد يقرضها.

قام أبو جمعان، بعد حلفان كثير على الضيف، بالاستزادة في الغداء.

حمل الصحن، كان خفيفًا، دخل به إلى أم جمعان، طلب طاسة ماء بارد من القربة. غطس شواربه ورأس أنفه، وشرب حتى ارتوى. مد بها نحو أم جمعان، أوصاها بأن تملأها مرة ثانية. وحملها إلى عطية.

لم يسأله إن كان يرغب في الماء. وضعها أمامه برفق، على مرتفع بداية الشباك.

قال أبو جمعان لعطية، وكان يعلم أنه قد أكل جيدًا:

- ما تغديت يا عطية!!.. أخاف أن يكون غدانا ما أعجبك!

رد عطية مؤكدًا بالحلفان أن الغداء كان طيبًا.

كانت علبة التمباك قد حان وقتها، لتقول: طق! وضب أبو جمعان سيجارة في عناية، ناولها لعطية. قال عطية:

- أفا عليك يا بو جمعان. تبغى تردني للأيام اللي راحت؟!

تناول منه السيجارة. ضغط طرفها بين إصبعيه. انتظر أبو جمعان حتى

يكمل بناء سيجارة له.

وضعا السيجارتين في فميهما. كانا يتكلمان، في مستقبل الوسمية، كلامًا متقطعًا. وكانت السيجارتان تهتزان بين شدقيهما.

أشعل أبو جمعان عودًا من علبة الكبريت، وجهه إلى رأس سيجارة عطية. سحب عطية سحبات قوية، إلى أن تعمرت سيجارته. أحس بطعمها على لسانه.

انطفأ عود الكبريت. انتزع أبو جمعان عودًا ثانيًا من العلبة، أشعله بحكة مضغوطة وواضحة هذه المرة.. قالت: شخطط. ولع سيجارته، ثم ملأ فمه بالدخان، وظهرت حفرتان غائرتان في الخدين.

قال أبو جمعان:

- ليس للشاهي وقت ألذ من هذا الوقت.

جلسا متكئين على مساند العلف، المحشوة في أكياس قماش خرائط جيء بها من مكة، مكتوب عليها: (دقيق أمريكاني عال العال)، وفيها نجوم زرقاء باهتة، ما زالت مرسومة بوضوح.

حيث كانت فناجين الشاهي، الخفيف، ترسل خيوطًا بخارية، تتشابه في الفضاء مع دخان التمباك.. طاب المزاج. حان لعطية أن يفتح باب الحديث، ويطرح الموضوع بجدية، قال:

- يا بو جمعان.. العلم خير!

رد أبو جمعان:

- خير.. قول يا عطية!

واصل عطية:

- الدنيا.. وأنا أخوك.. تروح وتجي.. وابن آدم كما المرجيحة.. يوم له، ويوم عليه.. وأنا نويت أسافر.. أشوف كما الناس.. يمكن على طارى الحج في مكة ألقى شغلة.. الزراعة ما عادت تعطى نص ثمرتها، والدهر ما يرحم.. وأنت تعرف، مثلك ما هو بغشيم.. السفر يحتاج لدراهم.. أسبوع من هنا حتى تصل مكة.. وما تدرى كيف تكون؟.. الغريب ما له صديق في السفر إلا الدراهم!!

إن كان، وأنا أخوك، عندك شيء.. وإن شاء الله.. بعد عودتي.. أرد الصاع صاعين.. وإن كان ما عندك شيء. فوالله ما أشره عليك، واللي فيك مخبور!!

قبض أبو جمعان على لحيته بيده اليسرى. ضرب على صدره بالأخرى. نظر إلى عطية بعينين ثابتتين، قال:

- يا عطية.. أنت جيت والله يحييك، البيت بيتك، وأنا أخوك في الطيب والبطال.. ولو كان رأس واحد من أولادي.. ابشر بالخير، وما للصديق إلا صديقه!

نادى أبو جمعان زوجته. جاءت ملبية بترحاب.. قال:

- هاتي الدراهم المصرورة في الصندوق.

غابت قليلاً.. جاءت بصرة صغيرة، تفوح منها رائحة عطر كادي.. فضها أبو جمعان، وضعها قدام عطية.. وقال:

- والله لتطلب.. اطلب يا عطية!

قال عطية إنه يبغى عشرين ريالاً.

عد أبو جمعان.. فوجدها أكثر من أربعين ريالاً.. كانت قديمة.. نقد عطية عشرين ريالاً.

قال عطية بامتنان:

- عشت.. وأنا أخوك.. الله يخلف عليك.

استأذنه في الذهاب. رافقه إلى آخر الساحة.. تصافحا، ومضى عطية ناشرًا كلام التوديع الحار.

قالت أم جمعان لزوجها:

- يا مخلوق.. وراك تعمير بيت.. لك سنتين تحط القرش على القرش. كيف تروح تسلف فلوسك؟

نهرها بعين حمراء، أظهرت عتابًا قاسيًا. قال إنها لا تعرف حسن التصرف ولا الرأي.. هي ناقصة عقل ودين.. هي تسكت خير لها!.. الفلوس فلوسه هو.. وهو حر في إنفاقها.

قالت، محتدة:

- أيوه.. نص الدراهم تروح في التمباك.. ونصها تروح أسلاف.

استعاذ بالله، وحوقل كثيراً.. رأى من الصواب مغادرة البيت، والتفسح نحو سعيد الأعمى. منذ جمعتين لم يزره.

***

وصل أبو جمعان إلى سعيد الأعمى. خلع نعليه، المصنوعتين من سيور الجلد الأصلي، عند الباب الخشبي المتين. نادى باسم أبو مسفر، وجاءه الرد بالترحاب.

سلم سعيد على أبو جمعان، سأله عن حاله وحال عياله، قال.. من يوم موت فرحان بالماطور لم يتقابلا.

كان الهم باديا على أبو جمعان، رابضًا في وجهه. لكنه قال إنه بخير، والعيال بخير، وزوجته بصحة كما الفرس.

وأضاف:

- الله ينتقم من النسوان.

عرف العم سعيد أنه دخل في عراك كلامي مع زوجته، لكنها غيمة ولا تلبث أن تزول، والكل يتخاصم مع امرأته في أبسط الأمور.

دخلت سعدية زوجة العم سعيد الأعمى. كانت تحمل على ذراعها حزمة حطب، لا تزال عيدانه خضراء. سمعت أبو جمعان. اندفعت بحماس.. رمت الحزمة إلى الركن القريب مكان القبس، التفتت إلى مجلس الرجال الذي يفصله باب عريض مفتوح، قالت:

- سلام.

ووجهت قولها إلى أبو جمعان.

- ليش يا بو جمعان.. ينتقم من النسوان؟! وأنتم الرجال.. ليش ما ينتقم منكم؟.. وإلا أنتم ملائكة؟!

احمر وجه العم سعيد الأعمى قليلاً. صوب وجهه نحو صوت زوجته، رجرج عينيه البيضاويتين إلى فوق وتحت.. لكنه لم يتكلم.

واصلت:

- كل شيء لكم حلال.. الكلام والخصام والضرب والشتيمة!

تنحنح العم سعيد الأعمى. قال بصوت قوى، يريد أن يفرد رجولته:

- يا مره.. خلاص.. لسانك أطول منك.

تراجعت، وقلبها ممتلئ بالكثير من الغيظ والكلام غير المباح، قالت:

- العيب.. عندنا ضيوف، اطلع شوف أبو صالح ايش يسوى مع مرته.. حتى لو قالت له بت الليل واقف!

رد العم سعيد الأعمى:

- أقول نسوان صحيح.. ما يفتحون كلام ويسكتون أبدًا.

تدخل أبو صالح منهيًا الكلام:

- يا سعيد.. يا بو مسفر.. الله يخليك لو ما كانوا النسوان.. ما نسوى شيء بدونهم، ما غير الله يهديك.. والكلام انتهى!

كان أبو جمعان يتنفس الدخان بحرارة، وينفخ في الهواء.. يمضمض فمه بالدخان، وينفخ. قال، في قرارته: (استجرت يا عمرو من الرمضاء بالنار). رمى بعقب السيجارة في النار المتأججة أمام جلسته. وقال لزوجة العم سعيد الأعمى:

- بالله يا أم مسفر.. هاتي لنا ملء الطاسة ماء.

قالت:

- أبشر.. ولو كان...

لم تكمل. لكنها مضت إلى حيث القربة المعلقة عند المدخل. فتحت فمها، أفرغت من مائها المعطر برائحة القطران. ملأت الطاسة إلى أكثر من نصفها، وجاءت بها إلى مجلس الرجال. كانت الطاسة تدفع بقطرات جانبية من الماء الفائض.

(8)

في البئر

إلى «عيون الحمام» سرحت النساء والبنات، حاملات القرب السوداء، المطلية بالقطران.. الاستقاء من «عيون الحمام» لا يحتاج لدلو، ولا لعضل يشد، ويرفع، ويصب. الماء ينبع بسخاء من تحت الصخور.. يمضي مهرولاً إلى أن يجد له مجرى.. يختفي، ويظهر بعيدًا في مجرى آخر، أو يبتلعه مسيال عميق.

جلسن على طرفي المجرى، يغترفن الماء بعلب السمن الفارغة، ويملأن القرب بالماء الدافئ: اثنتين.. اثنتين، واحدة تمسك فم القربة، واحدة تغترف وتصب.

دارت الحكاية بين لسان ولسان، بين تذمر، وخوف، وعتاب، وغير عتاب.

قلن: خائفة وتستاهل الموت!

قلن: العيب من الرجل الذي تركها!

قلن: لا.. العيب من أبيها.

حكت واحدة الحكاية بوقائعها، دونما لوم، قالت:

- (يقولون إن الرجل كان يحب البنت.. وكان بعد ما ينامون الناس.. يروح وراء شباك البداية.. من وراء البيت.. يحذف بحجر صغير.. تسمع الحذفة، تفتح البداية وتشوفه واقف في برد الليل ينتظر ردها.

قالوا.. قفلت الشباك، أهلها راقدين.. ندرت عند الباب الذي في الوراء.. فتحت، وقالت له ادخل.. أهلي نايمين كلهم صغير وكبير.. تعال.. ادخل!

.. ودخل...

علقت واحدة:

- الله يقطع نصيبه.. كيف يدخل؟!

استمرت الأخرى تحكى:

- يقولون.. دخل.. ورقد معها في فراشها.. واستمر على هذي الحال.. يوم بعد يوم.. يوم بعد يوم..

وفي يوم.. شافت بطنها كبر.. وعرفت أن الموضوع كبر.

قالت واحدة، بتعجب:

- يوه.. يوه!

واصلت:

- قالوا.. راحت شكت الأمر لأمها.. قالت أمها.. أبوك لو درى يذبحك.. خلاص.. اسكتي.. عندي وصفة. وراحت تطبخ لها العرفج والبصل، وتسقيها.. لكن ما شافت فايدة.

قالوا.. يوم الخميس اللي راح.. يوم السوق.. دوروا أهلها عليها..

دوروا.. ما لقيوها، نشدوا القريب والبعيد.. وما لقيوها.

قالوا.. أمها ماتت من الخوف في نفسها.. لكنها سكتت. راحت عند الرجل.. صاحب بنتها، نشدته.. قال ما أدرى.

قالت واحدة:

- الله يخيبه.

واصلت:

- الرجل كان يدرى وين هي.. لكن كان جبان!

يقولون.. باتت عنده هذيك الليلة، وصبح الخميس.. عند آذان الديك.. خرجت من عنده.. وراحت عند بير بعيدة.. ورمت نفسها.

يقولون.. الرجل حاول فيها.. حاول فيها، وقال لها يا بنت الحرام.. اقعدي معي، وبكره نشرد بعيد عن هذي الديار، واللي يصير.. يصير! لكن ما رضيت. حزمت وسطها بشرشف، وسعت. حتى عند البير ورمت نفسها.

قالت واحدة:

- الله يكفينا.. وليش ما سمعت كلامه؟

قالت واحدة:

- لا والله.. إلا راحت على النار. لكن كيف عرفوا بعدين؟!

- يقولون.. أبوها راح للحكومة وسألهم.. راحوا يدورون.. من الخميس إلى الخميس يدورون.. ودلهم واحد من ذيك القرية على بير فيها ريحة عفنة.. ولقيوها فوق الماء!!

نهرتهن واحدة:

- هيا.. هيا.. تأخرنا.. الله يرحمها.. هيا.

مضين يخضن ويزدن في الحكاية.

كن قد تأخرن عن بيوتهن.. كانت الطريق تكشف عن قطرت ماء مرتطمة بالتراب، وكانت القطرات تنز من القرب السوداء.

(9)

الزلة

كانت صلاة الجمعة قد أديت. لم يغب أحد من أسفل القرية ولا من أعلاها. جماعة.. جماعة، وجماعة واحدة كبيرة. الكلمة واحدة، والرأي واحد، والمشورة واحدة: في الطيب والبطال. في مراح العروس، أو حضور عزاء الميت، عندما تنوب النائبة، أو يحدث اعتداء من القرى المجاورة، أو من القبائل البعيدة.. الجماعة كلها واحدة!

يجتمعون في بيت الشيخ، يتشاورون، كل يرى رأيه، يخلطون المشاورات، ويخرجون بقرار ما ينفذ منه الماء.

جلس كل من أنهى ركعتي السنة، بعد الصلاة خلف الإمام. جلس، في ساحة المسجد، على رؤوس أصابع قدميه، يسلم على الغائب والقادم من السفر، وينتظر خبرًا يذاع أو رأيًا يعرض.

خرج ثلاثة رجال من المسجد، محتزمين بالخناجر، كان لها حزام جلدي متين، مزخرف بنجوم فضية، وسيور دقيقة ملونة.

سلموا على الجماعة سلامًا طيبًا.. قعدوا جانبًا، حتى خرج كل من بالمسجد. رأوا في الجماعة ناسًا أغرابًا.

بدأ واحد من الرجال الثلاثة الكلام. كان يتكلم بترتيل مرتب، يقف بعد كل قول، ويقول: أستغفر الله العظيم.

قال:

- يا جماعة الخير.. العلم خير.. كلنا إخوان ورفاقة.. أستغفر الله العظيم.. وادينا وواديكم نعتبره واحد.. وبلادنا وبلادكم واحدة.. وسوقنا واحد.. والله واحد.. أستغفر الله العظيم.. وأظن الباطل ما يرضيكم.. والحق لازم يعدى فوق الصغير والكبير.. أستغفر الله العظيم.. ونحن جينا نشتكى.. وجينا نطلب الحق.. والحق ما يرفضه إلا الجاهل، أو المجنون.. أستغفر الله العظيم.. الأيام الأولى من هذا الأسبوع.. تعدت غنمكم على حمانا، وهجمت على الزرع.. أكلت، وزهقت مثل ما زهقت، وعيالكم اللي يرعونها.. تعدوا على عيالنا وضربوهم.. أستغفر الله العظيم.. وأظن هذا العلم ما يرضيكم.. وما يرضى أي عاقل!

وأضاف:

- وأظن أنكم أهل للحق، وسلامتكم!!

انتشر الهدوء. كانت العيون وحدها تقرأ الوجوه، وجوه من يمتلك الأغنام، ويسرحها للوادي بالأخص. أفسح الهدوء سكة لقول الشيخ. تنحنح الشيخ، رفع مقدمة عمامته التي تغطى جبينه إلى فوق مقدمة العقال.. قال:

- سلامتكم!

وأضاف:

- جيتم تطلبون الحق.. ومثلما قلت، ما بيرفض الحق إلا الجاهل والمجنون.. ولا بد نشوف الموضوع، ونتحقق من اللي حصل.. لو بان لكم

عندنا حق.. أبشروا به.. ولو بان لنا عندكم حق.. فالله ما يضيع الحق.

سكت قليلاً، وأضاف:

- وسلامتكم.

قال الرجل:

- أنتم تعالوا.. وشوفوا التعدي.. وبعدها نتفاهم على الخير.

وافق الشيخ بلسان جماعته، وانصرفوا. اتفق أفراد الجماعة على اجتماع يكون في مقدمته الشيخ، وأصحاب الأغنام.. كان الاجتماع في بيت الشيخ.

جاءت الجماعة من البيوت المتناثرة في القرية.. حملوا عصيهم، ومشاعيبهم، واحتزموا بالجنابي والخناجر، توافدوا واحدًا بعد الآخر.

امتلأ مجلس الشيخ.. كانت الأحذية تغطى المدخل عند الباب، كما لو أنها تربض عند باب المسجد.

جاءت القهوة.. والشاهي، والقهوة.. صبها الشباب الذي يعرف شغله في الملمات.

بعد تناثر الكلام، من بعيد، حول الموضوع.. قال الشيخ:

- يا جماعة الخير..

وهبط الهدوء.

أضاف، بدون انقطاع:

- العلم خير.. نحن كلنا معروفين من أعلى القرية إلى أسفلها.. وما كلنا عندنا غنم.. بعضنا عنده غنم.. لكن بعضنا ما يوصى عياله لما يسرحون يرعونها.. واللي عنده غنم معروف.. ولازم نرسل اثنين منا يروحون يشوفون

مكان التعدي.. إن كان زلة تستاهل نروح لجيراننا.. ونغطى ونوطي.. نختم لهم بالحق.. فهذا واجب علينا.. وإن كان العلم مختلف.. فغضب الله على الشيطان.. وأنتم أحسن نظر.. ايش تقولون؟!

قالوا، بصوت واحد:

- هذا رأى صحيح.

وأضاف واحد، متأخرًا:

- رأى صحيح.. والله.

قال الشيخ:

- نرسل أبو جمعان وأحمد بن صالح في هذه الساعة.. ويجون لنا بالخبر.

عدل أبو جمعان من قعدته، أرسل عينيه، بتأهب، إلى أحمد بن صالح.. قال:

- اتكلنا على الله.

التقطا مشعابيهما، نهضا، قالا:

- في أمان الله يا جماعة.

ردوا:

- الله معكم.

عند الباب احتذيا نعليهما، أحدثت حفيفًا وسط ركود الصمت.

أعطيا باب المجلس قفاهما. هبطا نحو الوادي. وعند سفح الجبل الواقف بين القريتين وقفا على حدود الحمى، قفزا على حجيرة مرتفعة البناء قليلاً.

حاما في مكان التعدي.. طوفا شمالاً، ويمينًا، فوق، وتحت. وجدا أثرًا

صارخًا لتعدى الغنم. كما لقيا بقايا عصى متكسرة. تيقنا من أن التعدي وقع، ولا بد من الاعتراف بفعل الخطأ.

قال أحمد بن صالح، مداريًا:

- ناخد واحد من جماعتهم.. وواحد من قريتنا.. يحلف بالله.. ناخد جمرة يحطها كل واحد على لسانه.. واللي تحرق لسانه فهو وجماعته كذابين.. ايش اللي يثبت أن عيالنا هم اللي تعدوا بغنمهم؟!

قال أبو جمعان بغضب وانفعال:

- يا أحمد.. هذا حرام.. وأنت كبير في السن.. الحق واضح.. والتعدي واضح.. ما تحتاج يمين ولا جمر.. اتق الله يا شيخ!!

همهم ابن صالح، ثم قال دفعة واحدة:

- طيب.. ليش تتضايق؟ أنا قلت وايش رأيك.. لو تشوف أنه رأى معقول.. إلا نعود ونقول لهم.. شفنا التعدي واضح وما ندرى إذا كان من عيالنا، ولا من غيرهم.

قال أبو جمعان بحسم:

- لا.. لا.. الحق حق.. هيا.. نتكل على الله، ونقول لهم على اللي شفناه.

مشيا. كان أحمد بن صالح يمشي بخطى ثقيلة.

صاح الأولاد لمن بالمجلس:

- أبو جمعان وبن صالح جاءوا.

بعد قليل من الانتظار سمع صوت نعليهما في الساحة. دخلا، سلما بصوت خفيض، جلسا.

قال الشيخ:

- وايش العلوم؟!

قال أحمد بن صالح:

- العلم خير.. التعدي لقيناه.. لكن ما ندرى من هو راعيه.

قال أبو جمعان:

- التعدي باين.. ولقينا عصى مكسرة.. وأول الحمى مأكول.. والحق حق.

قال الشيخ:

- غضب الله على الشيطان.. لازم نجهز منا ستة رجال.. يروحون.. ويختمون بالحق.. يوم الجمعة.. يحطون سلاحهم في ساحة المسجد.. ويقولون لهم اطلبوا الحق.

توالت الأقوال:

- حق.. والله حق.

- واجب.. والحق ما نضيعه.

- بكره ندور على الحق عند غيرنا.. نلقاه.

- نجهز الرجال يوم الجمعة.. إن شاء الله.

صباح الجمعة.. تجهز ستة رجال.. كان أبو جمعان أحدهم.. لبسوا زين الثياب.. احتزموا بالخناجر، وأخذوا في أيديهم المشاعيب. كان ثلاثة من الرجال يعلقون على أكتافهم ثلاثًا من البنادق البلجيكي، وفي رؤوس البنادق الثلاث، إلى جانب أذن كل بندقية، مشاحن رفيعة مثل الإبر الكبيرة،

حديدها أسود، لا يلمع فيه إلا مكان اليد، خشبه داكن مثل الحذاء المحروق.

ودعوا بعض الجماعة في بيت الشيخ، ومضوا ببطن الوادي، في الطريق الجبلي المحفوف بالصخور والحصى. كانوا يتحدثون عن مواجهة الناس في ساحة مسجدهم. قالوا: عددهم ليس كمثلنا.. صحيح منهم رجال أطوال أشناب، يعرفون الكلام، والأخذ والرد، لكن ما نتركهم يأخذون عنا فكرة التقصير.. أجدادنا كان الواحد منهم يسوى قبيلة.. في حرب.. في نائبة.. في سوق.. في عرضة.. في كل العلوم.

انتهى بهم الحديث عند أول بيت، أسفل الجبل، من بيوت الجيران في القرية. هجدوا.. كانت خطواتهم تصطك بحجارة الطريق.

فاجأوا صبيانًا يلعبون، سألوهم عن آذان الجمعة. أجاب صبي بلسان يسيل بالخوف والتردد.. إن المؤذن قد أذن قبل أن يخرج مع رفاقه.. سألوه.. متى خرج.. قال إنه خرج معهم يوم خرج بعد ما طلع من البيت.

لم يجدوا جوابًا يمكن الإعقاد على صدقه. مضوا إلى وسط القرية.. حيث المسجد. لا بأس إن تقدموا قبل وصول الفقيه.. كانوا طاهرين.. مستعدين صوب المسجد.. ليس لدخول بيت واحد قبل الخاتمة، وعرض واجب الحق.

دخلوا المسجد، وصفوا أحذيتهم، الاثني عشر، جانبًا، عند الباب. وقفوا في صف واحد.. الصف الثالث، الرابع للأولاد ومن يجئ من الوادي متأخرًا.

عندما دخلوا سكنت ضجة الذين يقرأون في المصاحف القديمة.. تجمعت النظرات في الركن.. عند موضع البنادق والمشاعيب.

حدثت المفاجأة: الفقيه التاجر.. أخرج ورقة من جيبه وقرأ:

(على بن صالح.. ثلاثة ريال، بتاريخ....).

ظن المصلون أنه حساب يوم القيامة، وقد جاء في خطبة الجمعة!!

بسرعة، طوى الورقة. دسها في جيبه.. أخرج ورقتين في طية واحدة. تنحنح مرتين.. ثلاثة.. وقال:

- الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

استمر في الخطبة المنقولة من دفتر الخطب، قال في الخطبة الثانية:

- اللهم احمِ حوزة الدين، ودمر اليهود وأعوانهم من المستعمرين.. اللهم اجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك، اللهم انصر حاكمنا، وأعنه على أعداء الإسلام والمسلمين.

رددوا خلفه:

- آمين.. آمين.. آمين.

واختلطت (آمين) بترديد البعض (آنيم.. آنيم).

عقب انتهاء الصلاة، قبل خروج المصلين من المسجد، وقف واحد من الرجال الستة.. قال:

- يا جماعة الخير.. عندنا بعد الصلاة كلام.

عاد إلى صف آخر، صلى ركعتي السنة. خرج المصلون، انتعلوا أحذيتهم، جلسوا على رؤوس أصابع أقدامهم، فوق تراب الساحة، دون أن يتغيب نفر واحد.. انتظروا بداية الكلام.

قال أكبر من في الرجال الستة:

- السلام عليكم يا جماعة.

ردوا:

- عليكم السلام.

قال:

- العلم خير.. احنا جينا.. ولقينا عيالنا تعدوا على حماكم.. والتعدي واضح.. واللي تأمرون به.. انحن حاضرين.

تقدم، ووضع سلاحه وسط الساحة.. تقدم الخمسة، ووضعوا أسلحتهم إلى جانبه.

عاد إلى مكانه وواصل:

- سلاحنا بين أيديكم.. جينا نختم بالحق.. ونعترف بالتعدي.

ساد صمت قصير، قال شيخهم:

- أنتم جيتم.. والله يحييكم.. والاعتراف بالحق فضيلة.

وأشار بحركة من يده. قام رجل من الرجال وجمع سلاح الضيوف. فهم الرجال الستة أن الموعد في مجلس الشيخ.

جاء الجميع إلى بيت الشيخ.. خلعوا أحذيتهم.. كان الفقيه يجلس إلى جانب الشيخ.

جاءت القهوة، والتمر، وجاء بعدها الشاهي.

قال الشيخ:

- الله يحييكم.. خذوا سلاحكم.. ولازم نكتب بيننا ورقة.. ونذكر فيها الحادثة.. ونذكر حضوركم.. وخاتمتكم.

وافقوا.

قرأ الفقيه الورقة. كتبها بقلم حبر قديم.. كان يغمسه في قارورة الحبر،

يكتب سطرًا ويغمسه. قال:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين. وبعد، إنه في اليوم الرابع من شهر جمادى، اجتمع ستة من رجال أهل قرية «الجبل».. عدد أسمائهم..

.. مع شيخ وأهل قريتنا «الوادي».. وذكروا معترفين بزلة غنمهم وعيالهم، على حمانا، والذي يقع على الحد بيننا وبين القرية المذكورة، وذكروا في اعترافهم بواجب الحق، أن عيالهم اعتدوا على عيالنا بالضرب والشتم، وكانوا هم المبتدئين، والبادي أظلم، واليوم جاءوا بسلاحهم وطرحوه في ساحة المسجد، وضربوا على صدورهم، مستعدين بكامل الحق. وبعد السماح والدماح، وصفاء النفوس، تم رد سلاحهم بكامله، والاتفاق على غرامة أربعة من الغنم.. تذبح في قريتنا، ويحضرها الستة المذكورون مع شيخهم، وهي رد سلف إذا ما سمح الله وحدث اعتداء من جهتنا.

شهد الله تعالى علينا، وأذنا لمن يشهد. والله خير الشاهدين.

دارت المحبرة على عدد من الجالسين، غمسوا إبهاماتهم في الحبر، وغمس الشيخ راحة إبهامه، غمس الرجال الستة إبهاماتهم، امتلأ ذيل الوثيقة بالبصمات.

نسى الشيخ أن يبصم بختمه.. استدعى ابنه، جاء بختم مثل الخاتم الفضي الكبير، مربوط بطرف منديل أحمر مزهر. غمسه في المحبرة، وضغط به إلى جانب بصمته، غطى الحبر المتشعب طرف الحروف، وكاد الاسم أن يختفي.

كتب الفقيه ورقة ثانية من الورق المقوى، الذي يصلح للحفظ، مثلما

كتب في الأولى.

دارت المحبرة والورقة، توالت البصمات، وجاء ختم الشيخ في أعلى الذيل.

(10)

أحمد يتعلم أشياء جديدة

دخلت الشمس، بتسلل دافئ، من بداية الشباك الشرقية. حملت معها ذرات صغيرة اختلطت بنورها.

جاءت القطط، وألقت بأجسادها في التمدد الطويل من فتحة الشباك، أضاءته، وأدفأته الشمس.

كان أحمد يقعد مع إخوانه، يشربون القهوة بالجنزبيل، يبللون كسر الخبز في الفناجين، حتى تصير لينة، ويأكلونها.

كانت أمهم قد أوصت بنتها بمراعاة إخوانها عندما يصحون متأخرين، ويأكلون فطورهم. أحس أحمد وهو يقضم كسرة لم تلن في القهوة بكرة صغيرة قاسية تذهب وتجيء مع اللقمة. قنفذ وجهه، انكمشت فتحتا عينيه، زر حاجبيه.. قال:

- ضرسي.. ضرسي طاح.

تفل اللقمة في يده اليسرى. بدون بحث طويل لمح قطعة مرمرية بيضاء بجذور مشرشرة، كانت تختلط باللقمة السمراء الممضوغة.

- يا حظك.. أعطها لعين الشمس!

قبض على الضرس بين أصابعه.. طرحه في راحة يده.. تلمح في جوانبه، نهض بخفة القط حين يلمح الكلب.

خرج إلى الساحة، تبعه إخوانه.

قالت خضراء:

- يا أحمد.. احذفه في البعيد.

شد يده اليمنى إلى صدره.. شدات مكتنزة بالقوة، لواها في الهواء ثلاث مرات.. أخّر قدمًا وقدم قدمًا.. حذف بالضرس تجاه الشمس.. قال:

- خذي يا عين الشمس ضرسى.. وهاتي ضرس غزال.

قالت خضراء:

- ما هو بكذا.. قول.. خذي يا عين الشمس ضرس الحمار وهاتي ضرس غزال.

أعاد:

- خذي يا عين الشمس ضرس الحمار.. وهاتي ضرس غزال.

قالت خضراء:

- تعال.. مضمض فمك بالماء والملح.

قال:

- الملح يحرق الفم.

قالت:

- ما يضر.. علشان الدم يوقف.

أحضرت فنجان قهوة من الصيني، ملأته بالماء، ووضعت وسطه فصين من الملح، حركته بهدوء بسبابة يمناها، كما يحضر الدواء.

قال إخوانه:

- يا حظك.. يا أحمد.. بيطلع لك سنون غزال!

شعر أحمد بالتعالي. قال إنه بقى عليه ضرس واحد، ويصبح رجلاً من الرجال.

***

مضت أيام. كان أحمد يشعر فيها بحاجة إلى شيء لا يمكنه الافصاح عنه. نظر إلى أخته خضراء، بعينين متأملتين، لمح فخذيها الممتلئين من خلف السروال الطويل المخطط.. حاول كسر نظراته.. عاد يفكر في أشياء كبيرة وجميلة.. قال في نفسه متخوفًا: (لو أنهم يعرفون!).

قرر أن يحكى لرفيقه غرم الله عن إحساساته المكتومة.. لكنه رأى في ذلك تعديًا على أخته.. وصمت.

سأل رفيقه، الذي يكبره بسنة واحدة:

- يا أخي.. تحب تتزوج مين.. من البنات؟!

فوجئ غرم الله بالسؤال. قال:

- يعني!!.. لازم أتزوج حميدة بنت خالي.. وخالي وخالتي يحبوني.. وحميدة تستحي لما تشوفني عندهم.

قال أحمد:

- طيب يا مجنون.. هي أكبر منك.. كيف تخطبها؟!

رد غرم الله:

- لازم أخطب واحدة.. عزبة.

قال أحمد:

- حميدة أكبر منك بسنتين، وعمرك ثلاث تعشر سنة هالحين!

قال غرم الله، بتذكر:

- يا سلام.. وايش يعنى.. الفرق سنتين.. وأنا رجل.. قلعت كل ضروسي.. وطلع لي بدالها ضروس غزال.

قلب أحمد موضوع الحديث.. قال إنه شاهد مرة حمارًا يركب على ظهر حمارة بيضاء!.. قال إن الحمارة كانت تفتح وتصك فمها، وترخى برأسها إلى الأرض. قال إنه أحس بدمه يفور في جسمه.. ملأ الدم وجهه من الخجل.

قال غرم الله:

- طيب.. صحيح.. لكن بني آدم يسوى مثلما تسوى الحمير.. لكن في الليل.. لما يطفوا النور.. ويقعدوا لوحدهم.. بعد ما ينامون العيال.

بعد سرحان قليل، قال أحمد:

- أيو الله.. كلامك صحيح.. مرة سألت أمي.. من أين تلد.. تلمحت فيه.. وقالت لي.. عيب.. استح. العيال يجون من فوق.. من فتحة السقف.

أضاف:

- استحيت أسألها عن زوج فتحة السقف.

قال غرم الله:

- تفتكر يا مغفل أنها بتقول لك.. كيف يسوون؟!

قال إن لديه طريقة سهلة.. تحتاج إلى قليل من البصاق، والمخاط.. يدهن بها اليد الشمال، ويفرك بها ذكره.. وبعد ما يفركه فركات سريعة.. يحس باللذة.. ويفتكر كيف يعمل الرجال مع نسوانهم.

أوصاه أن يجعل هذا الكلام في سره، وألا يحكيه لأحد.. لأنه حرام.

خلف البيت، وسط حفرة كبيرة يختفي فيها من جاء يبول، دون أن يلمحه أحد، قعد أحمد على رؤوس أصابع قدميه، رفع ثوبه فوق ظهره، وجرد سرواله إلى ركبتيه، وبال.

تجمع الذباب، واحدًا وراء واحد، أزرق، وأغبر، وأخضر.. وله صوت مثل صوت النحل.

نظر إلى بوله.. أصفر برائحة الأديم عندما ينقع في الماء. وضع ذكره في قبضة يده اليسرى، ضغط عليه على مهل، وتصور الحمار والحمارة، وهي تفتح وتصك فمها.

تصور فخذي أخته، وجاهد في طرد خيالها الحرام. تذكر أنه مرة جاء إلى موضعها. فوجد بولها يفوح برائحة تطير الذباب، وكاد يتقيأ.

دهن راحة كفه الشمال.. قليل من المخاط لم يقدر على رؤيته.. غصب نفسه وبصق عليه مرتين، شغل يده، ضغط على حيله، ولم يحصل على شيء لذيذ كما وصف له غرم الله.

بحث عن شيء يمسح فيه يده. تحير.. أمسك بأخواط ورق العثرب المتمايل خضرة إلى جانبه، مسح كفه، وقام.

أحس بغثيان يقلب كبده. هزم كل التصورات اللذيذة في دماغه.

جره الندم في سر عميق إلى أمه، أن يسألها أن تعمل له فنجان شاهي.

(11)

حمارة حميدة

راحت من الوادي، وجاءت من الطريق المنحدر تحت بيت الشيخ.. هزت رجليها إلى جانبي بطن حمارتها، فزعت الحمارة العجوز، كانت ترفع رجليها، كما لو كانت تخطو بثقالات من الحصى.. ثقيلة بطيئة. حركت الحمارة ذيلها، نفضته في الاتجاهين: من الشمال، ومن اليمين، ومروحت به في الهواء.. تطرد «الهمج» المتهافت حول مؤخرتها مثل حومة الذباب.

شخرت.. شخرت، رفعت رأسها إلى امتداد رقبتها المغطاة بشعر متقافز مثل الإبر، لوت الرباط وقتما اهتزت وفزعت.

أوقفتها حميدة، وهي تدعوها للثبات، على مهل:

- هوش.. هوش.. هوش!!

ثبتت الحمارة.. اختلت ركبتا حميدة، كادت تقع إلى الخلف.. غير أن قبضتيها المتماسكتين شدتا «الحلس» المربوط تحت رقبة الحمارة، وتحت ذيلها، أمسكت الرباط في شمالها، وتمسكت بقبضتها اليمين.. هزت برجليها وقالت:

- هش.. هش.

خرجت من بين أشجار العرعر عميقة الخضرة، اقتربت من ساحة البيت. أوقفت الحمارة بخبطة جامدة في رقبتها، ونزلت.. فقالت الحذاء المجلدة على الأرض: طرق، بقوة.

سوت ثوبها الأسود المطرز، من الخلف ظهرت التجاعيد متكسرة مكان مقعدها.. صفعت طرف الثوب، وعملت الشرشف. لفته لفتين، ولفة أخيرة من فوق الرأس حتى الرقبة والأكتاف.

قادت الحمارة من رباطها الطويل، وركعت تربطها إلى جانب المعلف الخالي. مشت إلى وسط الساحة، ونادت:

- يا أهل البيت.. يا عيال!

خرجت بنت في العاشرة، لمحت حميدة، امتلأت عيناها، جرت إلى الداخل.. قالت:

- أبى.. أبى.. حميدة جت!

قال الشيخ، على الفور:

- أهلة الله.. عدى.

خبطت حميدة على حلق الباب، قال الحلق الكبير: طرك.. طرك.

مشت إلى الداخل خطوة واحدة.. كانت الشمس قد سيطرت على النظر، عندما دخلت لم تقدر على التأكد بعينيها.. قالت:

- سلام عليكم.. والعون لكم.

مدت يدها.. صافحت الرجل، لثمت زوجته والبنات: لثمتين.. لثمتين،

على الخفيف. تواسعت البنات. قعدتْ حميدة إلى جانب امرأة الشيخ، سألت عن الحال. انبرم الحديث حول الشمس المنصبة مثل الهام، بعدما كانت الرياح والبرودة تميتان الناس، قبل دخول الوسمية.

اطمأنت إلى أن باب الحديث انفتح.. طرحت الكلام على الشيخ:

- العلم خير.. قل يا الله في الخير!!

قال:

- خير.. قولي.

رفعت صوتها:

- أنت تعرف.. بلادي وزرعي قليل.. والناس عينهم في حق الضعيف.. واليوم ندرت الوادي أطوف.. لقيت فيه ناس سووا طريق من وسط الزرع.. ما أدرى متى.. لكن الزرع مدهوك.. وهذا الفعل ما يرضى الله.. ولا يرضى رسوله.. وذا الحين.. أبغيك تقول للناس في المسجد.. هذا الكلام ما يصح..

ارتفع صوتها أكثر:

- هذا الفعل ما يصح.. ولا ايش رأيك؟!

ابتسم الشيخ.. رد بصوت هادئ:

- ما حصل إلا الخير.. وأبشري بالحق.

قالت:

- الحق.. أن هذا الفعل ما يصير!

قال:

- تعرفين من هو اللي عدى.. وسوى الطريق؟

قالت:

- لو كنت أعرف.. كنت فضحته من الله ومن خلقه.

قال:

- الحل.. نكلم الناس يوم الجمعة في المسجد.. وما فيه أحد يرضى بالخطأ..

كانت ستضيف كلامًا كثيرًا، لكنها ابتلعته، نظرت إلى زوجة الشيخ:

- كيف حال عيالك؟

قالت زوجة الشيخ.. إن العيال يحبون اللعب في الشمس، تحت أشجار اللوز.. وتمنت ألا تصيبهم ضربة الشمس، فطول الوقت يجلسون هناك.

قالت إنها ستنهض لتعمل دلة قهوة بالجنزبيل.

لم ترد حميدة. صراحة، بسكوتها، ترغب في القهوة.

قام الشيخ، قال إنه سيروح يتفقد العيال تحت أشجار اللوز، فالثعابين تخرج كثيرًا وقت القيلولة.

(12)

أمطرت

استوت الحنطة، وسنبل الشعير إلى جانبها.. أما العدس فظهرت حبوبه خضراء ممتلئة.. ستمر بشحوب واصفرار، أو اخضرار، فنضوج.

كانت السماء ترسل طيلة الصبح، إلى أن يؤذن للظهر، ويأكل الناس غذائهم: في الغالب طبيخة العدس، أو بقايا الذرة المطبوخة بالملح والبهار.

من بعد الغذاء وزوال القيلولة، تهب رياح رطبة، تغيم السماء.

استمرت الحال لأيام سبعة من الخميس إلى يوم سوق الخميس. يجلس الناس بعد الظهر في البيوت، يكبر التوقع ويكبر، كلما صار لون الغيم كحلاً.

لا بد من سقوط المطر، والغيم دليل يعلن مجيئه.

صدر الهابطون إلى السوق يوم الخميس، بحميرهم المحملة بالتمر، والنبق، والشار، والريحان، والكادي، والسكر، والشاهي، والبن، والجنزبيل، وحب الهيل، والدخان الأخضر، وأشياء.

باعوا العنب، والبرشومي، والأنقاص، والقضب في سوق الخميس.. وسط القرى المجاورة، واشتروا بأثمانها حاجياتهم.

ربط الناس حميرهم، وشالوا الخروج المتفخة بالمقاضي.. جلسوا للغداء.

دقدق الراعد.. جاء رشاش خفيف، بلل التراب في الساحات. قال الناس: (يا كريم).

استغفر الأطفال الرب، وأرعدت. أرعدت، رمت بالماء على هيئة قطرات كبيرة. امتلأت الخلجان والسواقي، وجرت المياه إلى مواطئ الزرع والشجر.

(لو زاد عن هذا الحد يضرب بالزرع.. يضر بالسنابل ويفتت).

قال الناس: (سقينا وروينا). توارد الخوف في القلوب:

(سيضر بثمار اللوز والمشمش.. وكل الثمار الطالعة ما بداخلها).

خرجت زوجة العم سعيد الأعمى من الباب. رمت بمنفاخ القبس في الساحة، وقالت لعيالها إن المنفاخ برد من غزارة المطر.

..وحذرتهم من الخروج.. فالصواعق لا ترحم أحدًا!

تساقطت قطرات كبيرة، من فتحة السقف، على القبس المشتعلة تحتها.. وتصاعدت: طش.. طش.. طش.

قال العم سعيد الأعمى لزوجته:

- من يوم الخميس اللي فات.. وأنا أقول لك.. غطي الفتحة.. لكن عنادك ما يودي لخير!.

غطت رأسها وكتفيها بجبتها القصيرة، صعدت من الدرج القصير، أغلقت الفتحة بالصحن النحاس القديم، ووقع المطر: طن.. طن.. طن..

وضعت على الصحن حجرًا، كان بجانب الفتحة، هبطت بحذر، دخلت، رمت بجبتها جانبًا، حتى تتفقد الأولاد، وتعلقه في وجه الدخان

قدام القبس.

قالت لزوجها:

- هاه.. خلاص.. غطينا الفتحة.. فكنا من الموضوع.. اهجد!

كاد يخرج كلامًا ساخنًا.. لكنه صنت لوقع المطر على السقف وفي الساحة.

خف المطر قليلاً.. قليلاً. حتى توقف. خرج الأطفال إلى الساحات يغزلون الحكايات عن قوس قزح.

امتلأت المزارع، وفاضت البلاد بماء السواقي.

قال العم سعيد الأعمى لولده الكبير:

- ذا الحين.. الحمد لله.. وأنا أبوك.. لا تسرح تسقى بالثيران.. ولا تغدى ولا تجي.. سقاها ربك من فوق!

رد مسفر، وهو يفرك كفيه قدام لهب القبس، وقد قرفط جسمه القصير في «كوت» أغبر قديم:

- الحمد لله.. نفك نفوسنا من تعب السواقي.

جاءت سعدية بلوازم القهوة.. وضعت الدلة على الكانون، نقت حبات القهوة، وفص الجنزبيل، حطته مع البن بعد التحميص في المهراس.

هجرت الدنيا، وارتفع رنين المهراس: ران.. رين.. ران.. ران.. رين.

سأل أحد أولادها:

- هو صحيح قوس قزح.. نسيته الشمس في السماء؟!

أجابته ببرود:

- قوس قزح.. آها.. طلع يرد المطر.. خلاص ما فيه مطر!

استفسر:

- طيب.. وليش ملون؟!

ردت بضيق:

- أوه.. ملون!!.. الشمس والمطر لونوه!

قبضت على عروة الدلة بطرف ثوبها، لبست الحرارة في كفها، صاحت:

- آح.. آح.

اندلق قليل من القهوة على القبس فطشطشت، وحرفتها إلى تحت الكانون، على الرماد الدافئ.

حلق البخار الممزوج بالجنزبيل وحب الهيل.. امتزج بالدخان.

وصبت القهوة في الفناجين، بهدوء، وراحة بال، متراخيين.

(13)

الخط

كان رأى كل الرجال لا ينقط منه الماء.

كل واحد بمسحاة، أو عتلة، أو منقبة، أو زنبيل، أو منشل.. أياد أخرى من الخارج لن تفتح الخط للسيارة، مسافته أربعة كيلو مترات.. مرات في الجبل.. ومرات في طرق مزروعة!

الحكومة يومها بسنة، ولو أنها ستفتح خطًا للقرية.. لفتحت للبلد.. أو لمكان السوق.. منذ زمن! لكنها بعيدة.

هاجت الأصوات، علا الرنين، تشمرت السواعد، عصبت العمائم، وحمل الجميع أشياء من عدة الشغل في أيديهم. مروا، وقت طلوع الشمس، ببيت الشيخ.. رمى بجبته بالكمر وأخرج من بيته عدة شغل، كثيرة وجديدة.

جاءت القهوة تطفح بالجنزبيل وحب الهيل.. شرب الجميع وشربوا أيضًا الشاهي.

أرسل الشيخ ثلاثة شباب لإحضار الطبول. طلب من قارعها، بمساعد البعض، تسخينها وشدها. لتملأ بصوتها كل الوديان والجبال.

خرج الجميع من المجلس، يحشدهم الحماس، وتملأهم الهمة، قرعت الطبول فحمى الحماس.

أخذت الدائرة تكبر، وتكبر، وتتسع.

جاء صوت أبو جمعان في المقدمة:

- خلوا الأولاد يسكتون.. خلوهم يقفون في الوراء.

صاح مسفر القصير:

- يا جماعة.. وحدوا الله.. ورتبوا نفوسكم.

قال واحد:

- اصطفوا اثنين اثنين.. الشمس بتحمى علينا.. هيا.

ونادى الشيخ، في المقدمة، مع أبو جمعان، بنزول الشاعر.

نزل الشاعر الممتلئ بالعافية، ألقى بفأسه وسط الدائرة لف لفتين داخلها وهو يحدو:

(يا هلا وألفين سهلا بالذي فيهم مروة.. يا لهل لا له لا له.. يال لهل.. لهلا.. لال).

ردد الناس القول. جهة اليمين يبدأون، جهة الشمال يردون.

لفوا لفات، لا تزيد عن خمس، مشوا في طابور واحد طويل رفيع الذيل، في طريق واحد يعوج ويستقيم، يطلع وينزل.

كان ضارب الطبل يمشى جنبًا إلى جنب الصف الطويل، ويضرب.. ويضرب.. يضرب الطبل ضربًا متزاحمًا.

وقفوا عند الحد الأول، خارج القرية، على مسافة ساعة، هللوا، وكبروا،

وشرعوا في الحفر والتسوية.

جملة ناس تحضر من هنا، لتلتقي بجملة ناس من هناك، وتجيء جملة ثالثة بالفؤوس.. يبسطون ويسوون التراب المختلط بالحجارة الصغيرة، في زنابيل المناثل.

يقفون وقفة قصيرة، يشربون الماء من القرب المحمولة على ظهور الحمير على امتداد مسافة الشغل. حميت الشمس تصب جهنم على الرؤوس الملفوفة بالعمائم. حمى التعب يسلط آلاف، في البطن الخالي، والقدم الواقفة، والعضل الموزع بين الحفر والتدميس.

البيت القريب، أقرب مسافة، أو البيوت الجماعة.. يعرفون يكرمون الجماعة الكبيرة، يعرفون يختارون الذبائح التي لا يمكن لغيرها أن تزود البطون الخالية والسواعد العاملة.

رمى الشيخ بمسحاته على الأرض، تدحرجت قليلاً. قعد إلى ظل شجيرة، فك عمامته المشدودة على كل رأسه، نفضها في الهواء نفضات قوية فقالت: صك.. صك. نفض داخلها النظيف نفضتين، مسح وجهه ولحيته وجبينه ببطن العمامة، أشار إلى شاب منغمس في التراب.. لم يلتفت، ناداه باسمه فلبى.. أوصاه بالذهاب إلى الرجال الواقفين مع حريمهم، يعدون الغذاء، وأباريق ماء الوضوء، وغيره.

أوصاه أن يستعجلهم في تجهيز الغذاء، فالشمس حميت، والتعب يأخذ نصيبه، أوصاه بتجهيز القهوة أولاً، وقبل كل شيء.

فك الشاب عمامته المحزومة بوسطه. نفضها، وقالت كثيرًا من: صك، نفض قبعته المعفرة بالتراب، كان قد ألقى بمنقبته ومنثله جنب مسحاة الشيخ.. وقف قليلاً، خلع نعليه، ضرب في بعضهما البعض ففر التراب،

وبقي سواد أغبر مكان رشح القدمين.

رمى بهما للأرض، تقافزتا، انقلبت أحداهما فعدلها، صفع بيديه على جانبي ثوبه، خرج تراب مبعثر. قال للشيخ إنه سيروح لهم في الساح. غمض الشيخ عينيه.. وفتحهما. فدارت في رأسه ثلاثة أمور، اشتبكت وتمازجت في عجلة، كما يشتبك الغبار بضوء الشمس:

(أول باب: الآباء والأجداد كانوا يحضرون أحمالهم على الحمير والجمال، والحمير والجمال تمشى في الطريق التي تطأها القدم، والحمير والجمال تصعد الجبال وتهبط الوديان، وتأكل من الشجر وعلف الحبوب وكل أخضر في البلاد.. ولا تحتاج إلى سكة ولا إلى أشياء أخرى).

(ثاني باب: يقولون، السيارات تنفع، وتشيل أحمالاً أكبر من أحمال الحمير والجمال، تشيل المسافرين من عند بيوتهم إلى مكة، وتجئ بالجاز، وتجئ بالحطب، وتجئ بالحبوب الأمريكية.. وبدلاً من إحضار هذه الأشياء بالحمير والجمال.. تجئ السيارات وعلى ظهرها الأحمال.. صحيح أن راعى السيارة غريب، ويجئ البلد في أيام معدودة من السنة، ويأخذ أجرة أغلى من التي يأخذها صاحب الجمل، وصحيح أن البعيد اقترب، وابتعد القريب، وتكلم الحديد - وهذه من علامات القيامة - وصحيح أن الدولة تقدر تفتح خط.. لكن:

جاء الخير وقلت البركة.. من يوم أصبح الصديق ينسى صديقه، والرحيم ينسى رحيمه، والقريب يتعادى مع قريبه، وأصبحت الفلوس هي التي تسوى الرجال.. تتحكم في القريب والبعيد.. خرب الزرع وقلت البركة.. وحفت الدنيا.. وأصبح الناس يحبون حنطة أمريكا، والشاهي السيلاني، ويسافرون ويجيئون. ومن يوم صار البترول يأخذ الناس، وينسى الشباب أراضيهم وزراعتهم، وحق آباءهم وأجدادهم.. وصاروا يتمسخرون

بالبلاد وخيرها: كان يجب أن تفتح درب للسيارات، ونجيء بمواطير لنزع الماء ورفعه، ونشتري الحنطة الأمريكية، ونسمع أغاني الراديو، ونلبس البفت الأبيض والنايلو.. مرة نضيع.. ومرة نصبح رجالاً).

(وثالث باب: بكرة تجيء السيارات، وتروح وتجيء.. بكرة نطالب الدولة، والدولة غنية.. تفتح مدرسة لأولادنا.. يتعلمون (عجن.. خبز)، ويتعلمون دينهم ودنياهم.. بدلاً من رواحهم مسيرة نصف يوم على أرجلهم يدرسون.. بعضهم يمرض وبعضهم يختطفه السيل وقت الوسمية.. ما يجيء إلا خبره، وبعضهم يسقط كل سنة.. مرة يروح المدرسة، ومرة ما يروح).

امتزجت الأبواب الثلاثة، بأصوات الحفر والدق في الأرض، علا اختلاطها بالغبار، وسعال الجماعة، وتشابك حركتهم.

كانت عيناه، بين لحظة ولحظة، تقفان عند حد فأس، أو انقلاب منثل، أو ضربة عتلة.. يذهب الفكر هاربًا من باب.. يقف.. ويفتح بابًا آخر.

طرح أبو جمعان صوته، كان يبدو للشيخ وكأنه صوت معروف ومحبب، ومصبوغ بالتمباك:

- يا جماعة الخير.. هموا.. هموا شوية.. الشمس تحمى علينا.

دخل بصوته أذني الشيخ. طاف بداخلها. قام.. فرد عمامته.. برمها برمتين.. مسكها من طرفيها، شدها بقوة من الزاويتين، على رأسه الأصلع السمنى اللامع في سطوع الشمس الحامية.

نفض ثوبه. صفعتين جانبيتين.. مشى إلى فأسه المرمية: هراوة برأسها حديدة جامدة.

جذب طرف الهراوة، جاء إلى جانب التراب المائل، و غمس الفأس.. لم يجذب ترابا كثيرا.

ضرب بالحديدة الحادة في الكومة بقوة، قالت الفأس و هي تخترق بطن الكومة: « تشخ « تأكدت له قوة دخولها في التراب، و سحبها.. اجترت معها كمية أكبر من حجمها بكثير.. سحب.. سحب.. تفرع التراب، مع السحب، من الجانبين.

سمع شكوى تنضب من صوت وقور، رفع فأسه، التفت خلفه. كان الغبار يحجز النظر، فرقعت الفؤوس و المناقب، تهابدت المناثل على الأرض.

جرى الشيخ خطوات إلى حيث بدأ الغبار ينكشف: شايب ضرب قدمه بالفأس.. انجلخت قدمه.. و نزى دم تلبد بالتراب.

كان الشيخ أول من فزع.. حط عمامته بحركة سريعة، ربطها، بكل ضخامتها، على قدم الشايب.. رفع قدمه إلى أعلى قليلاً.

كان الشايب يجلس على مؤخرته.. يمسك بطرف ساقه و يتأوه.. يعصر وجهه و شفتيه.. و يتأوه..

جاء « أبو صالح « بأخواط خضراء من نبات العثرب، المتناثر كما القضب، مضغه تحت أسنانه، تقاطر ذوب العثرب.. سكبه من فمه و هو يقضمه بعجلة.

فك عمامة الشيخ.. قال الشيخ:

- " على مهلك.. على مهلك.. الرجل يصيح من الوجع !".

رد أبو صالح :

- " و لا يهمك.. العثرب دواء الجروح".

حضر شاب، اندفع نحو نبتة عثرب مخضرة، قطف ملء يديه مضغ.. مضغ، صبه بلعابه و حموضته مكان الضربة.

تجمع الحفارون.. عالجت وجهات النظر الحالة.. قالوا.. نحمله إلى البيت، قالوا.. نوصله مكان بيوت الغداء الذي قارب أن يجهز.

قالوا.. نضعه في ظل الحجيرة، و نسقيه ماء.

جرى شاب إلى حمارة ترعى، محملة بقربتين مطليتين بالقطران، ممتلئتين بالماء.. حط شدهما، رفع ركبته، و أنزل القربتين إلى الأرض.

حمل واحدة على كتفه، كما تحملها النساء، لكن بخفة و جرأة. أخذ طاسة،قال الماء و هو ينفرط في الطاسة: « تشاخ.. » اهتزت الطاسة في يده قليلا، و تمكن من تقديمها للشايب، قال:

- «لا والله إلا الماء.. مداوى جرح الكبير.. خذ.. اشرب.. اشرب.. الشممس حامية».

ناولها بيد متمكنة، يمسك بيده اليسرى على رقبة القربة، يمنع انفراط الماء، أمسك باليمين على رباط فم القربة.. لواها لوية.. لويتين.. شدها، و سكت تقاطر الماء من التسرب !

كان الشايب يتكئ على جنبه اليمين، ثنى ركبتيه، سحب قدمه المضروبة: ملفوفة بعمامة الشيخ.. تجمد ذوب العثرب.. تعدى رباط العمامة.. فظهر.. كما يظهر الحناء الأخضر المتماسك.

قليلا، و صاح الشيخ:

- " الله يعطيكم العافية ".

رموا بكل ما في أيديهم.. حطوا عمائمهم، هبت أصوات العمائم في الهواء:

صك.. صك.

تصاكعت بغبارها وعرقها وتعبها. كان من المستحسن أن تصحب العرضة إيقاع الطبل، لكن التعب لم يترك جهدًا آخر.

ضرب ناقع الطبل طبله، ضربه ضربًا متشابهًا خامد الرتابة، علا رنينه، حتى سمعه الذين يجهزون الغداء.

تقدم مسفر القصير، وأبو صالح.. أمسكا بيد الشايب، أوقفاه، أخذ يطأ بقدمه الأرض وطئًا خفيفًا، يمس بها وجه الأرض قليلاً ويرفعها.. وهما يسندانه من الجانبين.

كان قد خف ألمها، وتجابس الجرح قليلاً.

قال مسفر القصير وعمامته تتذيل من على كتفيه:

- على مهلك وأنا أخوك.. الله يعطيك العافية.

قال أبو صالح:

- لا والله سلامة.. الله يعطيك العافية يا رجل.

قال الشايب:

- آه.. آه.. ضاع الشباب.. يبغى لي شهرين حتى تطيب.. ويا الله العافية.

رد أبو صالح يريد التخفيف عليه:

- لا.. لا.. لا تقول.. إن شاء الله قريب وهي طيبة.

توارد كثير من عبارات التخفيف:

- سلامتك يا بو جار الله.

- ما تشوف إلا العافية إن شاء الله.

- ذا الحين نروح.. وتستريح على طول.

- الله يخفف عنك.

- في رحل العدو.. إن شاء الله.

- ما يحصل إلا كل خير.

- إن شاء الله.. كلها يومين وتطيب.

- الحمد لله.. ما جت في عظم الساق.

- (بنا ستر.. خلاص.. الحمد لله.

تقاطروا، بغير نظام، إلى مكان الغداء.

في الطريق، قال أبو صالح:

- الله.. يا ذا الزمان.. بكره يسير الحديد من هنا.. وينقل لنا كل ثقيل.. الله!

علق واحد:

- الدنيا.. يا بو عبد الله.. اتغيرت.

قال الشيخ:

- لازم نساير الزمان.. وصاحب المثل يقول.. إذا ما طاعك الزمان فطيعه.

استراح أبو جمعان للقول، وردد:

- على قدنا.. وبجهدنا.. والله يعين.. مد رجلك على قد لحافك.

راح الشباب يتصورون غدهم.. لو كانوا يسوقون السيارات، وهي

محملة بالأرزاق، والنساء والأطفال، وكذلك الشيبان يرقبون الشطارة من فوق البيوت.

وصلوا مكان الغداء.. وجدوا في انتظارهم أباريق كثيرة مملوءة بالماء للغسيل والوضوء، تناثروا حول البيوت، يبولون ويتوضؤون.

تغرقت بقع ندية من آثار الماء.. بدت الساحات كلها كأنها ظل شجرة كبيرة تسطع من فوقها الشمس.

صلوا الظهر، خلف الفقيه الذي كان ينتظرهم، جاء الشباب في المجلس الكبير، بعدد من الدلات الفائضة بالقهوة ورائحة الجنزبيل وحب الهيل.

فاحت رائحة اللحم والمرق. كانت البطون تتهيأ لها بكل جوفها. بعد قليل.. دخل الرجال بستة صحون كبيرة، كل رجلين يحملان صحنًا حففت بكسر الخبز.. في الوسط طاسة كبيرة تمتلئ بالمرق، تحوم على سطحها حبيبات كثيرة من الفلفل الأسود، وقطع البصل الصغيرة البيضاء.

قال المضيفون:

- الله يحييكم.. هيا أرادوا.

تقاربت الزلف، كل زلفة على صحن. كانت السعة كبيرة، وكانت رشفات اللقم المملوءة بالمرق تبدد السكون والكلام.

لم يخرج أحد ليغسل يده، انتظروا قليلاً.. كل رجل يمد يمينه على ركبته اليمنى.. يدلي أصابعه نحو الأسفل، ويقعد إلى جانب الجدار.. حتى يجئ اللحم.

مرة أخرى قال المضيفون:

- الله يحييكم.. أردوا.

كانوا قد وضعوا للشائب صحنًا صغيرًا، ممتلئًا باللحم السمين.. بلل الدسم كل الأيدي، شبعت البطون، وجاء الأولاد بأباريق الماء ومسحوق الصابون. راحوا يصبون على الأيدي، والأيدي تفرك الدسم.

قال الشيخ، وهو يغسل يديه، وقد فركهما بقوة:

- هذي نعمة من الله.

ما كان الشيخ يريد هذا الرد.. لكنه قال:

- الوسمية أثرت في الرعي.. وفي الغنم.. في كل البلاد.

قال واحد، حاول تخليل أسنانه برؤوس أظافره، لولد يقف أمامه:

- روح.. وأنا أبوك.. هات عود من المقشة أتخلل به!

كان أبو جمعان قد جلس متربعًا، وأخرج علبة التمباك.

قال أبو صالح للمضيفين:

- يا جماعة الخير.. ما وديتوا غداء من اللحم لسعيد الأعمى أبو مسفر؟

وأضاف:

- أعنى أبو مسفر!

أجابوه بنعم.. أرسلوا له قبلما يتغذى الجميع.

جاء الشباب بالشاهي، على صحن وسيع كبير.. فناجين من «عقال فيصل»، وفناجين من «ساق سلوى».

قال الشيخ:

- يا جماعة الخير.. بكره في الصبح بدري.. قبل طلوع الشمس.. إن شاء الله.. نسرح شغلنا بدري.

... راح الناس إلى مشاغلهم بعد الظهر.

... مضت ثلاثة أيام.. كان الحفر والتسوية في الأرض والجبل، امتد طويلاً.

قال البعض:

- لا.. ما بقى إلا القليل.. كلها ثلاثة أربعة أيام ويصل الخط بيوتنا.

قال آخرون:

- لا تتهاونوا.. الأرض قاسية، وتحتاج لحفر قوي.. تحتاج لأيام أكثر من أسبوع.

من اليوم الرابع.. جاء واحد من السفر.. مر بالحفارين.. سلم عليهم سلامًا حارًا مؤكدًا رضاه وتشجيعه.. كانت له دراية قليلة بأمور السيارات.. قال:

- يا جماعة.. كلكم بركة وخير.. وشغلكم يرضي العين. لكن أنا أشوف الخط ضيق.. ويحتاج إلى وسع في العرض.

تقاطر نداء متشابه:

- يا بو صالح.. يا بو صالح.. الله يبشرك بغايبك.

كان أبو صالح مغبرًا إلى قمة رأسه.. أقام جذعه المحني.. رفع رأسه.. طفحت في وجهه ابتسامة، قال ملتفتا إلى ابنه صالح، مقبلاً نحوه:

- حيا الله الغايب.. يا هلا.. يا هلا.. جيت في أحسن وقت.. يا هلا.

قبّل صالح أباه في الخدين، وواحدة في أعلى الجبين، وقبل من لم يقبلهم قبل السلام، لكن بدون واحدة كبيرة في أعلى الجبين، قال أبو صالح لابنه:

- ذا الحين.. أنت تعبان من السفر.. ولازم تروح البيت تسلم على أهلك.. وبكره إن شاء الله نرسل سعيد بن أحمد على جمله.. يحمل عفش السفر من السوق.. بعدها.. الله يعطيك العافية.. تجي تشتغل مع جماعتك.

استأذن صالح، مشى على قدميه القويتين إلى البيت، لم يكن أحد في البيت قد علم بمجيئه.. استقبلته زوجة أبيه، ابتهج أخوته الصغار، أخوه أحمد جلس إلى جانبه يسأله عن أشكال البيوت والسيارات في مكة.

***

عند وقت آذان الظهر، في اليوم الرابع، قال الشيخ:

- الله يعطيكم العافية.. الله يعطيكم...

ضرب الطبال على طبله، رموا بكل ما في الأيدي، وراحوا لبيوت مضيفة أخرى، قريبة من نهاية الخط المحفور.

بعد الصلاة، بعد شرب القهوة، بعد الغداء، في وقت شرب الشاهي.. قال الشيخ:

- يا جماعة الخير.. العلم خير.. بكره بنسرح في الصبح نكمل شغلنا، وكلها أيام قليلة.. إن شاء الله.. ويصل الخط بيوتنا.. والخط سوينا لمصلحتنا كلنا.. الغني والفقير.. ولازم نتعاون جميع.. القوى والضعيف.. وانحن مثلما تشوفون.. يضايقنا في الخط بعض البلاد المزروعة...

علق أبو جمعان بتأييد:

- أيو الله.. نعم.. كلام صحيح!

سحب شفطة قوية من سيجارته.. حجبت لحيته وكل وجهه.

كان أحمد بن صالح يغرز عينيه بتحديق واضح في وجه أبو جمعان.

واصل الشيخ:

- مثلما قلت لكم.. فيه بلاد فيها زرع.. تضايق الخط.. ولازم نتشاور ونشوف ايش الحل في رأيكم؟!

أضاف بعد وقفة قصيرة:

- وسلامتكم!!

عدل من جلسته المربعة، مد كفه اليمين إلى عمامته، زحزحها عن جبينه.

قال أبو صالح:

- سلمت.. الخط.. خطنا جميع.. مثلما قلت.. وانحن تعبنا وإلى الساعة بعد نتعب.. لكن الواجب علينا نضحي.. فكرنا قلنا.. ونتشاور قبل ما نحط ايدينا فيه.. وأنا في رأيي إن راعى البلاد اللي فيها زرع.. الله يعينه.. لازم يغمض عينه شوية.. هو وأنا والثالث والرابع وكلنا...

قال أحمد بن صالح، وهو يجهز حاله للقول في كل لحظة:

- صحيح.. لكن كيف يروح جهد الواحد منا.. في الوسمية والتعب؟!.. كيف يروح زرعه وعرقه خسارة؟ عشان الخط؟.. أنا أشوف أن المسألة ما هي مناسبة.

رمى أبو جمعان، بنترة قوية من ذراعه، بعقب السيجارة من شباك البداية إلى الساحة.. تنحنح وقال:

- إحنا قلنا.. كلنا عندنا زرع.. وعندنا بلاد.. ولا بد الخط يعدى على الكثير منا.. ولا بد نضحى.

كان الشيخ يجهز ردًا درسه مع نفسه.. قال:

- يا جماعة الخير.. كل عقدة ولها حلال.. غضب الله على الشيطان.. والشيطان مع مناقض الجماعة.. أنا أشوف أن الذى بيعدي الخط من زرعه.. الله يخلف عليه.. نشوف كم يسوى الزرع والعلف.. وندفعه له تعويض.. وخلفه على الله).

دخلت دجاجة بيضاء من باب المجلس، كادت تبول على طرف فراش الخصف. اقترب ولد وحذفها بحذاء، فخرجت.

قال أبو صالح:

- يا شيخنا.. رأيك سليم.. الله يطول في عمرك.. لكن نخيره.. إن كان يبغى دراهم.. وإلا يبغى نجمع له، ونكيل له حب وعلف.. وهو المخير.

قال أحمد بن صالح:

- نعم.. وكفاه الله شر الحصاد والمدارس.. وبلاش من روح.. تعال...

استحسنوا الرأي.. راحوا يعددون البلاد التي سيعدى منها خط السيارة، ويصنعون لها مقدارًا معقولاً من حق الحنطة والشعير والعدس والعلف، قالوا.. يا فلان عليك كذا.. ويا فلان عليك كذا.

امتد الأمر في صدر أحمد بن صالح، لم يرضه شيء، التعويض الذى سيأخذه عن زرعه لا يمكن أن يعوضه، ولو كالوا له ضعف محصوله.. احتد وزفر في الركن الذي يقعد فيه، قال، بحدة غير منضبطة:

- يا جماعة.. يا جماعة الخير.. اصبروا.. اصبروا.. صلوا على النبي.. اصبروا.. لا تعدوا ولا تحصوا.

التفتت إليه العيون كلها، لمحته بدهشة وانتظار.

قال أبو جمعان:

- يا بن صالح.. ليش تخرب الرصة.. كلامنا واحد.. ورأينا واحد.. والحل معقول ومناسب.. ويش بعد تبغى؟!

قال الشيخ، باندهاش وحذر:

- يعنى ايش الحل في رأيك يا أحمد؟!.. احنا قلنا رأينا.. ووافقنا جميعا على الصواب.. عندك حل ثاني؟!

قال أحمد بن صالح، والكلام ينط من فمه:

- يا شيخنا.. الأمر ما هو عشاني لوحدي.. فيه ناس أيتام.. وأنتم تعرفون حميدة.. بلادها قليلة، وزرعها قليل.. والخط بيجي من حقها!

قال أبو جمعان في استنكار:

- يعنى يا بن صالح.. الجماعة كلهم يظلمونك لوحدك.. ويظلمون اليتيم لوحده؟!

رد أحمد بن صالح:

- أنا ما قلت تظلمونا.. لكن أقول.. دوروا على حل ثاني!

قال مسفر القصير:

- يا بن صالح.. أنت وحميدة.. وغيركم وغيركم.. يعنى.. حتى أنا.. الخط بيعدي من زرعي.. والحل اللي قاله الشيخ.. هو الحل المناسب لنا كلنا.

قال أبو جمعان بحسن صدق:

- والله العظيم.. يا جماعة الخير.. لو جاء الخط من زرعي.. ما أقول ولا كلمة.. ولا أخرج عن رأيكم.. ولو على واحد من أولادي.

رد أحمد بن صالح:

- يعني علشان ما جاء الخط من حقك.. تقول وتقول؟!

ارتفعت الأصوات من كل جانب، خشي أن يحدث صدام بين أحمد بن صالح وأبو جمعان.. قال مسفر القصير:

- تعالوا.. ندعى حميدة ونسألها ايش رأيها.

أرسلوا ولدًا ليستدعي حميدة من مجلس النساء.. خرجت وهرولت بدون حذاء إلى باب مجلس الرجال.. دخلت، والعيون ترقبها.. قالت:

- سلام عليكم يا جماعة.

قالوا، كلهم:

- وعليكم السلام.

وقفت، عند مدخل الباب من الداخل، قرب الأحذية.

قال أبو صالح:

- تقدمي.. تقدمي واقعدي.

تقدمت، بخطوة واحدة.

قال مسفر القصير:

- يا عيال.. أخرجوا العبوا.. ووسعوا للكبير!

خرج نفر قليل من الأولاد، قعدت حميدة، ثنت ركبتيها تحت مقعدها، وقعدت، غطت بقية جسمها بالشرشف من فوق الثوب.. كان الشرشف الأبيض الكبير (أبو خط في الطرف) يغطى رأسها، ورقبتها، وبقية الجسم.

قالت، مستفسرة:

- دعيتموني.. خير؟!!.

قال الشيخ:

- خير إن شاء الله.. كله خير.. العلم وما فيه.. إنتي تعرفين.. الجماعة كلهم يشتغلون في حفر الخط.. والخط لازم يعدى على بعض البلاد.. وفيه بلاد مزروعة كثير.. بيعدي منها الخط.. منها وصلة مزروعة من حقلك.

شرح لها رأى الجماعة، وكيفية التعويض.. ملأت سمعها بحذافير الكلام، وضعت يدها على عود كبريت أمامها، أخذت ترسم به على الحصير، بعد قليل.. قالت:

- يا جماعة.. أنتم تعرفون.. بلادي قليلة وزرعها ما يكفي مع تعبي.. يعيشنا من الحول للحول!.. لكن إذا كان التعويض كما المحصول.. فأنا أقول الله يكثر خيركم.. وأنا بنتكم.. وبكره أستفيد من الخط مثلكم.

كان الهدوء يخيم ويخيم، والعيون تصمت، وتتكلم، وتصمت، الكل كان يجد ردًا، تقابلت الخواطر، قال أبو جمعان:

- بارك الله فيك.. رأيك أحسن من رأى بعض الرجال.

قال أبو صالح:

- يا بو جمعان.. الله يهديك.. عرفنا وماله لزوم نبحت في الكلام.. حميدة قالت ووفت.. والله يخلف عليها ويبارك.

قال أبو جمعان:

- لا والله.. لكن أبغى أوضح الصواب.

قال أحمد بن صالح:

- أنا.. بعد أشاور نفسي.. وأشوف رأى سعيد الأعمى.. يمكن يشوف له مشورة ثانية.

قال أبو جمعان:

- طيب يا بن صالح.. نرسل واحد يدعي لنا أبو مسفر.. وقدامنا تشوف رأيه.

انطلق ولد إلى بيت العم سعيد الأعمى، وجده نائمًا، فقال لزوجته:

- يا عمتي سعدية.. الجماعة أرسلوني.. آخذ بايد عمي سعيد، ونروح لهم.. لازم تصحيه.

سمع العم سعيد الأعمى الصوت، نادى زوجته:

- أسمع كلام.. مين اللي جاء يا سعدية؟!

اقتربت من سريره المصنوع من جدائل السعف، قالت بصوت عالٍ، كأنها تتكلم مع أصم:

- الجماعة أرسلوا.. يبغونك تروح لهم.

تحرك في سريره.. ولم رجليه الممدودتين.. قال السرير: طرق.. طرق، استوى في جلسته.. وطلب منها طاسة ماء.. جاءت بالطاسة.. شرب.. ارتوى.. تقاطر الماء فوق لحيته وثوبه.. مسح شفتيه.. مد يده عند موضع الرأس في السرير، قبض على عكازه الطوكل.

نادى الولد، وأمسكه بيده اليسرى، وقف.. وبحث بقدميه عن فردتي الحذاء، فوجدهما تحت السرير.. لبسهما بلين.

تهيأ للخروج.. قالت زوجته:

- أصبر يا سعيد.. خذ العمامة هذى نظيفة.. حطها على رأسك.

ألبسته، وضعت الجبة الصوفية الطويلة البيضاء على كتفيه.

قالت للولد:

- على مهلك.. وأنا عمتك.. تعال من الطريق اللي تحت اللوز.

قال الولد:

- طيب..

وأمسك بشمال العم سعيد الأعمى وهو ساكت.

كان يعلم أن العم سعيد الأعمى سيتحدث معه حديثًا كثيرًا في الطريق..
قال العم سعيد:

- يا ولدى.. تشتى عيش فيك عاتر.. وإلا عيش فيك راح؟!

عرف الولد أنه دخل في اختبار مع العم سعيد الأعمى.. عرف كيف يلف ويدور ويقلب الكلام.. ويرد عليه بدون ورطة.. قال:

- يا عم سعيد.. اشتى عيش فيك راح.

رد العم سعيد الأعمى:

- شاطر.. من علمك؟!

قال الولد:

- ما أحد علمني!

أحس بالورطة، كان يكذب.. سمعها كثيرًا، يعرف ردها، لكنه لا يدرى ماذا تعنى.

قال العم سعيد الأعمى، وهو يمد عكازه فيضرب في الطريق:

- طيب.. يا ولدي.. أصابعك صغيرة.. بعد تطلع فقيه!

لم يعجبه التنبؤ بالفقاهة، فهو يكره الفقيه.. الفقيه اختبره ذات يوم في سؤال عن آية في القرآن، قدام الجالسين، وعجز عن الرد.. ولأن الفقيه لحيته طويلة، ويكثر من الأكل، ويطلب كثيرًا أباريق الوضوء.

قال الولد:

- ما أحب أكون فقيه.. أحب أسافر وأتعلم.

قلب العم سعيد الأعمى موضوع الحديث، راح يسأله بتفصيلات كثيرة عن مجلس الجماعة، وعن ماذا يتحدثون، كان الولد يرد باختصار، ويقول:

- لما تصل.. بعد تشوف كلامهم.

سأل العم سعيد الأعمى:

- وين وصلنا؟

قال الولد:

- تحت بيت أبو جمعان.

عرف.. اقترب من مكان مجلس الجماعة، مشيا خطوات، اجتازا الساحة، ودخلا.

وقفت الجماعة.. تفاسحوا لإخلاء مكان لأبو مسفر.

خلع نعليه، وقال:

- السلام عليكم.

ردوا، كلهم:

- وعليكم السلام.

تقدم الرجال.. وكلهم يقول:

- تعال هنا...

وأخذه الشيخ إلى جانبه.

قال الشيخ لسعيد الأعمى:

- العلم خير يا بو مسفر.. أنت تعرف.. الجماعة.. يشتغلون في فتح الخط.. والخط منفعة للجميع...

أكمل له الحديث، سأله عن رأيه في البلاد المزروعة..

قال أحمد بن صالح:

- يا بو مسفر.. نبغى رأيك.

كانت حميدة جالسة ما تزال تسمع كلام الرجال، قال العم سعيد الأعمى:

- أنا أشوف رأيكم في محله.. وكلامكم صواب.. وأحمد بن صالح.. مثله مثل باقي الجماعة.. ومثل حميدة.. ولا فيه رأى غير هذا.

بلغ الحنق والضيق بنفس أحمد بن صالح مكانًا كبيرًا، واحتاج لتدخين سيجارة من التمباك ود لو يطلبها من أبو جمعان، لكنه لم يجد فرصة لطلب ورقة محشوة من «ورق الشام»، قرر حبس نفسه.. لو تموت!

تنهد، قال بصوت مبحوح.. معترض:

- أنا.. ما يناسبني هذا الكلام كله.. صحيح فيكم الخير والبركة.. لكن من رأيي.. وقت الزرع والوسمية.. ما تعدي السيارة.. ووقت ما تخلى الأرض من الزرع نخلي السيارة تعدي.. أهل الجنوب كلهم.. من غامد إلى زهران.. ما فيه واحد يرضى على زرعه بالخطأ.

الجميع يعرفون مدى شذوذ رأي أحمد بن صالح، والكل يعرف مدى

عناده ومعارضته في سبيل أمور لا استقامة فيها.

راح البعض يحك في رأسه، والبعض يخلل لحيته، والبعض ينظر برفض إلى حصيرة الخصف.

قامت حميدة، وكما تمشى الدجاجة الملفوفة بالريش الأبيض، مشت على كل الأحذية المترامية عند مدخل الباب الخشبي العريض.. لم تتكلم بنصف كلمة، راحت إلى مجلس النساء.

أمور كثيرة في رأس أحمد بن صالح:

(بكره.. لو راح يشتكى عند الحكومة.. يقاطعونه أهل القرية.. يحرمونه من المنفعة العامة.. يحرمونه من المساعدة في حالة الميت.. والعروس.. وطايح البير.. وطينة البيت.. وكل الأمور الجماعية. بكره لو راح يشتكى للحكومة.. الحكومة ايدها قوية.. وتجرجر الجماعة واحدًا واحدًا.. تأخذ أقوالهم واحدًا واحدًا تعطلهم عن شغلهم.. ووسميتهم.. وزرعهم..

وبعدين؟! يكون الحق معهم.. ويرمونه هو في السجن.. وهو لا يطيق الحبس ليلة واحدة).

جاء الشباب بصينية مستطيلة، مرصوصة بفناجين الشاهي، صبوا الشاهي من الإبريق الكبير المدهون باللون الأخضر.. وزعت الفناجين.. من عند الشيخ في اليمين إلى عند آخر الدائرة، عند العم سعيد الأعمى، إلى شمال الشيخ.

تناول الشيخ فنجان «عقال فيصل»، ومد يده به للعم سعيد الأعمى.

قال الشيخ:

- خذ يا بو مسفر.. الشاهي.

قال العم سعيد الأعمى:

- هات.. سلمت.

قبل أن يمسك به بين أصابع يده اليمنى، وكفه الشمال، رفعه إلى فمه، شفط منه شفطة قوية، قالت: شف.. ف.. ف. حطه في كفه الشمال، وأمسك بعروته الصغيرة.

كان أبو جمعان، منذ سمع قرقعة الفناجين في الصحن قادمة من الساحة، قد أخرج علبة التمباك، نزع ورقة من «ورق الشام»، ومدد في سطحها المثني لبزة من التمباك الأخضر، راح يوضبها شارد الذهن، بعيد عن لذة الكيف، لكنه أشعلها وامتص قطرانها ودخانها..

لم يأخذ أحمد بن صالح فنجان الشاهي، كان يفلهم، يدخل فكرة ويطرد وفكرة.. قال:

- يا جماعة الخير.. إذا ما كان عندكم حل ثاني.. فمعونتي بالله.. خلاص.. الله يخلف عليه.. لكن أنا أبغى نص التعويض فلوس.. ونصه حب وعلف.

بسرعة، قال أبو جمعان:

- يعنى رضيت يا بن صالح.. لو كان من أول.. وليش نعقد الأمور؟!

سكت أحمد بن صالح، كان ينتظر من الشيخ الرد.

قال العم سعيد الأعمى:

- خلاص.. يا أحمد.. ما للواحد إلا جماعته.. طار في السما واللي وقع في الأرض.. يعنى يا أحمد مالك إلا جماعتك أحسن لك!

***

عشر قيلات:

من الصبح، قبل شروق الشمس، إلى وقت آذان الظهر.. كان الشغل مستمرًا في حفر الخط.. اقترب رأس الخط من أطراف الساحات.. وقعت صعوبات في سفح الجبل.. تغلب عليها الحفارون بالعتل والمناقب، اعترضت هضبة كبيرة وسط الخط، تعاونوا، وقلبتها الأيدي بقلب واحد شديد.. قال الشاعر وقتها:

(يا معلم.. علم القرية.. هضبة الوادي قلبناها).

لحقت الترديدات:

- قلبناها.

- أيوه.. قلبناها.

أرسلوا إلى السوق، يطلبون راعى السيارة ليجيء بسيارته ويجرب الخط. جاء بسيارته الحمراء: صندوق خمسة أطنان، لها مزمار في المقدمة، لو شد حبله من الداخل.. قال: طاط.. طاط...

احتشد الصندوق بالراكبين، وصاح السواق:

- تمسكوا بأيديكم.. لا تطيحوا...

قفز الأولاد على الجوانب، خاف السواق، طلب من معاونه طرد الأولاد.. قال الأولاد:

- أنت معاون.. ما تعرف تسوق!

وقالوا:

- ما هي سيارتك!

اغتاظ السواق.. أوقف السيارة.. فتح باب المقدمة، توافدت العيون إلى داخلها العجيب: (ساعات، ودوائر، وحاجات.. سبحان الخالق!).

نزل، حدق في الصندوق المحتشد، قال:

- يا عيال.. الله يهديكم.. اقعدوا كما الناس.. لا تطيحون...

- لا.. لا تخاف.

- سوق.. ولا تخاف.

- الله! ليش تخاف علينا؟

وقال ولد:

- نبغيك تضرب بورى.. طاط طاط!!

انتظر الناس وسط القرية، لمحوا السيارة من أول ما دخلت الخط، كانت تتوقف قليلاً، وتتحرك قليلاً، تميل إلى الشمال، وتميل إلى اليمين.

علمت السطوح بالنساء كالغربان، وبالأطفال.

وصلت السيارة، تسبقها رائحة «البنزيم».. حيا الشيخ والواقفون راعى السيارة، عزموه على العشاء احتفالاً، ذبحوا الخرفان.. جاءوا بالقهوة والشاهي، والقهوة والشاهي، طول الليل.

قال الشيخ لراعى السيارة:

- هاه.. بشرنا.. كيف الخط؟! إن شاء الله طيب!

رد راعى السيارة:

- والله طيب.. لكن يحتاج لشوية تعديلات.. إن شاء الله تصلح.

سأل العم سعيد الأعمى عن السيارة والخط.. قالوا إن السيارة وصلت، والخط طيب، والحمد لله.

سألت النساء عن أكل السيارة وشرابها.. قالوا.. لا تحتاج!

كانت السيارة تقف وسط الساحة، والأولاد يطلعون.. ينزلون.. ينطون فوق.. يقعون تحت.

خرج أبو جمعان.. نهرهم:

- يا عيال.. أبعدوا عن السيارة كذا.. لا تلعبون.

رد ولد:

- أنت ايش عرفك؟!

وقال ولد:

- عيب.. هذا أبو جمعان.. اسكت.

تمنت كثيرات من النساء والبنات أن تكون لهن صلة بالسواق..

تمنى كثير من الشباب أن يتعلموا السواقة..

تمنى كثير من الرجال ركوبها في السفر..

تمنى البعض السفر.



الوسمية

عبدالعزيز مشري

هو عوالم كثيرة تأسر من يعرفه.. هو روائي متميز ومتجاوز ومقنع.. وهو قاص ممتع وفنان شامل، حتى عالم الكاريكاتير ساهم فيه.. هو كتلة من الفن، يقرأ كثيراً بكل الطرق. من الكتاب أو عبر مكبر للحروف والكلمات..

هذا ليس من قبيل المدح. ولكن أنا أقدم دعوة لكل الأجيال الجديدة بأن يكون ضمن أجندتهم القرائية، الاطلاع على نتاج المبدع عبدالعزيز مشري.

إن روايات مثل «الوسمية» و«صالحة» و«في عشق حتى» أو مجموعات قصصية كثيرة ومتميزة منها «أسفار السروي».. بمقارنتها لبعض الأعمال الصادرة الآن، نجد أنها متجاوزة. لأن من كتبها مبدع حقيقي، لا يطمح للشهرة مطلقاً بل أحب الكتابة والإبداع..

عبد العزيز مشري.. لابد أن تقرأه الأجيال الجديدة التي استسهلت الكتابة بتوفر التقنية الحديثة.. إنه كتلة من الصدق والإخلاص.. وعالم من الفن والإبداع.. وكثير من المحبة والود.

عبد العزيز الصقعبي


ISBN: 978-1-947836-16-7



صورة الغلاف: عبدالله الغبين